

طائر المئذنة



عبد الله بن علي السعد

طائر المذنة

مجموعة قصصية

الفارابي

الكتاب: طائر المئذنة
المؤلف: عبد الله بن علي السعد
abdullahali@aminantit.com
تصميم الغلاف والقواصل: هنادي الصفيان

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: (01)301461 - فاكس: (01)307775
ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 1107 2130
e-mail: farabi@inco.com.lb
www.dar-alfarabi.com

© عبدالله علي علي، 1428هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
علي، عبد الله علي
طائر المئذنة/ علي عبد الله علي علي - الدمام، 1428هـ
208 ص 1214سم
1- الفصص القصيرة العربية أ- العنوان
ديوي 813.01 1428/4099
رقم الإيداع: 1428/4099
ردمك: 9960-47-999-9

الطبعة الأولى 2007

ISBN: 978- 9953-71-243-7

© جميع الحقوق محفوظة

طبعت هذه المجموعة برعاية مؤسسة شيخة الجود

تباع النسخة الكترونياً على موقع:

www.arabicebook.com

شكر..

إلى أمي شيخة الغنام لطباعتها
الكتاب.

إلى زوجتي هنادي الصفيان
لتصميم الغلاف والفواصل.

إلى الأستاذة زينب كردي لمراجعتها
المجموعة.

صورة

قصاصة قلب..

حين تعيش تجارب أكثر تكتشف عجزك وقلة تجربتك، وهكذا الحال في القراءة، فعندما تقرأ كتباً جيدة ستفاجأ بعجزك عن التعبير. وحين تكتب للمرة الأولى ستشعر برغبة في نشر ما كتبت، حتى لو كنت خجلاً منه فإنك ستفخر به، ولكن حين تتمرّس في الكتابة ستعيد النظر مراراً قبل النشر، وستنشر وأنت خجل، ثم تفخر بكتابك، ولكن ستبقيه بعيداً عن عينك. تماماً كما تفعل حين ترضى عن تصرف يقوم به ابنك، ولا تبدي له حماساً حتى لا يشعر بالغرور، ستقول له كان يمكنك أن تفعل كذا وكذا، مع أنك تخفي في نفسك الفخر والسعادة.

وهذا ما حدث معي في مجموعاتي؛ كانت كتبي حصيلة تجارب استمرت عدة سنوات، ثم كتبت وأبقيتها عدة سنوات، بعد ذلك أخرجتها لا أقول مكرهاً، بل متردداً، وفي النهاية تركتها لمن حولي يتصرفون كما يريدون، وبقيت قلقاً أنتظر مولودي الجديد.

حين كتبت هذه الكلمات كانت المجموعة جاهزة تقريباً،

ولكنني لم أر نسختها الأخيرة التي ستدخل الطباعة، ولم ألمس الكتاب الأول. لقد كنت سعيداً وقلقاً، سأفرح بولدي بالتأكيد، ولكن كيف سيكون؟ وأي انطباع سيترك؟ حاولت أن لا أكتب تحت تأثير أيّ من قصصه، ولكنني كنت سعيداً وأنا أسرح بخيالي في المكان والزمان والأشخاص والمشاعر. لقد كانت المجموعات تجارب حقيقية مؤلمة، تمسكت فيها بأسلوبي ولم أغير حروفها؛ كنت أسطر حروفاً حيةً، تنبض بمشاعر أصحابها، وحين كتبت هذه الأحرف كنت أرتجف حقاً، كل ما حولي كان حقيقية، الكلام والمشاعر، وهكذا هي القصص.

خارج هذه الحروف هناك قلوب تحترق وتبذل، وقلوب تحرق وتبخل، قلوب سعيدة، وقلوب تعيسة، قلوب حرة، وقلوب ألفت العبودية، لن تتغير الحياة بهذه الكلمات، ولكن قد يسعد أناس حين يمرون على سطوري. لهؤلاء أكتب.. وقبل كل شيء لأمتي أهدي حروفي.



فاصل

الميكانيكي..

وقفتُ سيارتي في المكان نفسه الذي تعودت أن أجعلها فيه.. لم تكن هذه زيارتي الأولى لذيالك المكان، فقد تعودت أن أقوم بفحص دوري للسيارة كلما شعرت بالحاجة إليه، ولأنني لا أعرف من مهارات الميكانيكا أي شيء، فلست من النوع المهمل في التعامل مع السيارة.

لم يكن قاسم كبيراً في السن، وإن كنت أقرأ في ملامحه تجاعيد الأربعين.. إذ بدا لي كشجرة مهملة لم يتعهدا أحد بالري والتشذيب.. فجفت بعض أغصانها واصفرت.. ونمت حولها الأعشاب فزاحمتها على الحوض، وهكذا هي حال ذلك الشاب المغترب. كان ضعيف البنية، لوّحت الشمس بشرته فبدا لونه محترقاً، ظهر التعب على وجهه، وغارت عيناه في حزن ورجاء.. تقرأ في ابتسامته مرارة العمل وطلب الرزق، وعناء الغربة والتفكير في الأهل.

- هل تحتاج إلى تغيير الزيت؟
- يمكنك أن تسير عليها مدة إضافية.
- لا بأس أفضل أن أغيرها الآن.. ربما لا أجد وقتاً

فيما بعد.

ذهب مسرعاً ثم عاد يحمل في يده زجاجة باردة دفعها إليّ وابتسم، وأصر على أن أشربها.. ثم بدأ في عمله صامتاً.
- عدت للحديث معه ثانية.. أنت مغترب.. أليس كذلك؟

- ابتسم في سداجة.. بلى، أنا كذلك..

- أهلك معك هنا.. أم تركتهم في البلاد؟

سرت لحظة صمت.. شعرت كأنها سيف مزق تقاسيم وجهه.. وقبل أن أسمع الإجابة كنت قد رحلت إليهم هناك في قرية صغيرة على قمم الجبال.. ورأيت البيوت الحجرية القديمة.. والأغنام تسرح مع خيوط الفجر إلى المراعي الصخرية تلتمس عشبة تظهر من بين الصخور.. وأطفالاً في ثياب شبه ممزقة.. أو في رقع مجتمعة إن صح التعبير..

أيقظتني إجابته من غفليتي..

- تركتهم هناك في البلاد مع بقية الأسرة.

انشغل قاسم بالسيارة ينظفها.. ثم ذهب، وعاد حاملاً خمس علب وضعها فوق منضدة تشبعت بالزيت.. وأخرج من جيبه قطعة حديد مدببة من طرف، ومن طرفها الآخر تشبه السكين التي تُستخدم في النقش على الخشب، وبهدوء فتح العلب وعاد إلى السيارة يحمل قمعاً بيده، مسح به وبدأ في صب الزيت.

- هل تفكر في السفر؟

- نعم.. لا بد أن أسافر، ولكن ليس في الفترة الحالية.
- متى تنوي السفر؟ كنت أتأمل في ملامحه المنكسرة..
كان فيه شيء عَجِزْتُ عن الوصول إليه.. نوع من الانكسار أو
الشعور بالغربة، أو المرارة، لا أدري ما هو بالضبط ولكنه
كان يجعلك تشعر به وتشفق عليه.
- ربما بعد سبعة أشهر أو ثمانية.
- أتشعر بالراحة هنا؟
- أنا مرتاح.. ويوجد لي قريب هنا يزورني بين فترة
وأخرى.

قلبت نظري في ملابسه المتشعبة بالزيت.. تعمدت ألا
يرى نظراتي.. مع أنني كنت متأكداً أنه لن يهتم بها.. فلم يكن
من النوع الشكاك الذي يؤول نظرتك.. بدا ساذجاً.. أظهر من
أن تحمل نفسه حقداً على أحد.
انتهى من تغيير الزيت ولكنني أردت أن أبقى معه فترة
أطول.. رأيته أشد هزلاً مما تصورت في البداية.. ترى لماذا
تغيرت نظرتي له؟
بدأ يحدثني عن الأمطار في بلاده.. عن الربيع.. عن
الناس البسطاء.. وابنه أحمد الذي سيبدأ الدراسة هذا العام..
كنت أسافر معه في قصة كفاح.
يرويه لي بأحرف عامية، شعرت ببلاغتها تهزأ بأفلام
الكتاب.. لم تكن القصة تروي شيئاً معيناً.. كان ينتقل من

حدث لآخر.. شعر بالأنس إليّ فبدأ يحكي تفاصيل غربته.
- انتهيت من السيارة.
- هل ترى الماء إذا تكرمت؟
فتح علبة الماء.. ثم ذهب وعاد حاملاً ماءً أخضر، وأخذ
يصبه في السيارة.. اختلفنا في الحساب.. لم يكن يريد أن
يأخذ المبلغ الذي دفعته إليه.. أصر وازداد إصراري.. ومع
قسمي عليه قبل بالمبلغ وهو مطأطئ الرأس.
انطلقت بسيارتي.. وتركت قلبي معه.. أفكر في أسرة
تعيش في الجبال في انتظار ثمن علبة زيت يعيشون بها
ويتعلمون بثمنها.. ومن هذه المعيشة البدائية تخرج قلوب
صافية كقاسم. متصلة بربها.. متفانية في عملها.. مستقرة في
مشاعرها.. فنوع لا ينغص عيشها سوى شعور بالشوق لمن
تحب.



فاصل

أمانى القطار..

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تسافر فيها ولكنها شعرت بتغيرها عن المرات السابقة.. كل شيء حولها مختلف.. حتى المقاعد في القطار العتيق بدت بشكل آخر هذه المرة.. وضعت حقيبتها على المقعد المجاور وانشغلت بمراقبة الطريق والناس يتحركون جيئةً وذهاباً.. ازدحمت الأفكار في رأسها ومرت السنوات الخمس كومضات نقلتها عبر الزمن.. وبنظرة تائهة كانت تفكر في محطات الحياة.

بدأ الركاب يصعدون.. بين لحظة وأخرى ترفع رأسها لترى راكباً جديداً، وتعود إلى تفكيرها.. هذه امرأة مع أطفالها، ربما جاءت في زيارة أهلها.. لكنها لا تلتفت لحركة أبنائها الكثيرة.. بعض الناس لا يراعون الذوق العام.. تلملمت في مقعدها.. لماذا شعرت أنه غير مريح؟ هل لأنها لم تعد ملزمة بالسفر في القطار، لذا أمست تشعر بأنه غير مريح؟ هذا الرجل العجوز مر عليها من قبل.. لا بد أنه يقيم في منطقة نائية.. ربما يزور المدينة باستمرار لمراجعة دائرة من الدوائر.. ربما يأتي للحصول على مرتبه.. أو له تجارة أو

شيء من هذا القبيل.. كلا، شكله لا يؤهله لأن يكون من المستثمرين.. بدا لها كبيراً في السن متعباً.. إذاً ربما كان الراتب هو سبب زيارته الكثيرة، أو الضمان الاجتماعي ونحوه. شعرت بالحنين لأبيها، ترى لو كان على قيد الحياة هل كانت ستحتاج للسفر وحدها بالقطار؟ كم تمنيت لو أنها رآته وارتمت في أحضانه لتشعر بالدفء والأمان.. صحيح أن من حولها حاول أن يوفر لها الجو الأسري الذي تحتاجه، ولكن بقي مكان الأب شاغراً لم يملأه أحد.. ولا تدري إن كان سيملؤه أي إنسان بعد أبيها.

صعد للقطار شاب في العشرينات.. لقد رآته أكثر من مرة في المجيء والذهاب.. ربما كان طالباً في الكلية، شعرت بشيء غريب جعلها تفكر فيه.. لقد كانت رحلات القطار نوعاً من الرفقة لم تشعر به إلا الآن.. خمس سنوات ليست بالشيء القليل.. كثيرة هي الوجوه التي مرت عليها في خمس سنوات.. أخذت تفكر في هذا الأمر.. ترى هل شعرت بالانتماء لأي منها في يوم من الأيام؟

بدأت تستعرض المواقف عليها تجد في مخزون الذاكرة ما يساعدها على التفكير.. هذا الرجل العجوز، وذاك الشاب، ومجموعة أخرى بدا أن منهم الموظف، ومنهم الطالب.. وجوه تتجدد، ووجوه تختفي، وكل شيء يتغير حولها. حتى عربات القطار تغيرت وجدّد جزء منها.

عادت إلى التفكير في أبيها وبيت أهلها.. هل تشعر
بالرغبة في الاستقرار من أجل تكوين أسرة أم من أجل
شعورها بفقدان أبيها؟ ماهي مواصفات الرجل الذي تتمناه؟
مناظر الصحراء تحيط بالقطار.. كم تشبه هذه الصحراء
حياتها... الجفاف في المشاعر، ابتسمت وتذكرت ابتسامة
أمها.. لا، لا يمكن أن تظلمها.. لقد كانت أمّاً مثالية طيبة
لأبعد الحدود.. ولكن هذا لم يغير من أنها هي وأمها كانتا
تعيشان في شيء يشبه الصحراء.. ذكرها مرور المناظر السريع
من أمام نافذة القطار بمرور أربعة وعشرين ربيعاً من عمرها.
عادت إلى الصحراء وتحركت في مقعدها في ضيق.. ترى
لماذا تشعر بطول الطريق هذه المرة؟ ربما لأنها لم تعد
مضطرة لركوب القطار بعد اليوم.. إذاً ما هي مواصفات
الرجل الذي تراه يقتحم حياتها ليوفر لها الحب والاستقرار؟
سرحت مع كلمة الحب.. ترى هل الحب هو الشيء
الناقص في حياتها؟ ما هو الحب؟ هل هو الحنان؟ الرحمة؟
لماذا يرتبط أبوها بكل الذكريات المؤلمة؟ لماذا شعرت
بالحاجة إليه حين واجهت صعوبات الحياة؟ تراها تفتقد
الأمان وتتمنى أن تراه في صورة رجل تؤسس معه بيتها
وأسرتها الصغيرة؟
توقف القطار في محطة أخرى.. صعد أناس ونزل
آخرون.. وعادت للتفكير في حياتها من جديد.. بدا قلبها يشبه

هذه المحطة في بعض الجوانب.. دخول أناس لحياتها ثم رحيلهم ووصول غيرهم.. التشابه في الفترات التي يقونها.. ربما طالت أو قصرت ولكنها تشترك في الرحيل.. لماذا؟ سافرت مع السؤال.. هل لأن المقاييس التي سمحت لهم بالبقاء والرحيل لم تكن صحيحة؟ هل لأنها كانت تكتشف في كل صداقة تمر بها في سنوات الدراسة تبايناً في التفكير بينها وبين الأخريات؟ هل لأنها كانت ترتبط بالناس نتيجة حاجة عاطفية، ثم تكتشف أن زميلاتها لسن جادات مثلها في تقدير معاني الأخوة؟

ترى.. هل ستجد رجلاً يقدر هذه المعاني ويرتبط معها بصدق ويهبها الحنان الذي تريد؟ أخذها السؤال بعيداً.. وفاجأت نفسها وهي تفكر في الشاب من جديد.. ترى هل رأت فيه شيئاً مميزاً.. لم تكن تتذكر ملامحه.. ربما لأنها لم تهتم به، ولكنها تتذكر نظرتة وحقيبته على كتفه.. قد يكون أصغر منها، أو أكبر.. تمنى أن يكون أكبر منها لكي تشعر بأنه الأب وال.. زوج.

لماذا فكرت بهذه الصورة؟ هل لأنها الرحلة الأخيرة لها؟ التفتت إلى جارتها التي كانت تغط في نوم عميق.. بدت لها واقعية أكثر منها.. فتحت دفتر خاطرها وأخرجت قلمها وبدأت تكتب خاطرتها الأخيرة في القطار. نظرت إلى الشيء المكتوب في ابتسامة راضية.. شعرت

أنها سجلت في الرحلة الأخيرة خلاصة تجربة أليمة بقدر
سعادتها.. كانت الكلمات قليلة ولكنها بدت معبرة كثيراً..
مرت بعينها بين السطور.. حياتنا قطار.. والأسرة هي محطته
الأخيرة.. الأسرة مجموعة ثوابت وليست مجموعة ركاب
يمرون ويرحلون.. من يأتي في المحطات ربما لا يستقر ليبنى
بيتاً، ولكنه يرحل في المحطة القادمة.. لا يصلح البناء على
عربة في قطار.. للحياة معنى أعمق من ظاهر الألم.. ففي
الألم ينبت الفرح.. أقدار الله كلها خير، وشريك الحياة
سيأتي في موعده المكتوب.. القلب الذي ينتظر كل نهاية
أسبوع في المنزل يستحق بعض العناء، والعودة للأسرة
الحقيقية تعني أصالة وتمييزاً.. مشاعرنا في سفرنا الصغير تشبه
تغير الصور في النافذة، كل شيء سيتغير، وتبقى لكل بيئة
صورها التي لا تناسب غيرها.. توقف القطار في المحطة
الأخيرة وعلى الصفحة البيضاء دونت عبارات تبتسم من بين
الدموع.

فاصل

المهرجة..

- نعم أستطيع ذلك..

وأشارت برأسها لتأكيد كلامها.. كان كل شيء يتفاعل ليؤكد قدرتها على تنفيذ المهمة.. عيناها الذابلتان.. شفتاها المرتعشتان، يداها تشيران في عصبية وتوتر، وابتسامة منكسرة توحى بقرب الدموع... بهدوء نظرت إليها المديرية.. ثم نفثت في وجهها دخان سيجارتها وأجابت بابتسامة خليعة:

- حسناً.. الوظيفة لك.. وسنرى ما يمكنك عمله.

خرجت سميرة وهي سعيدة ودموعها تجري.. كان الشتاء قارساً ومع ذلك لم تشعر بالخوف من زمهريره، فعلى الأقل لديها وظيفة تؤمن بها كسوة الشتاء لصغيريها.. بدأت حبات المطر تضرب وجهها النحيل في قسوة.. ومع ذلك كانت تمشي بسرعة دون أن تفكر في الاحتماء من هطوله.. أرادت أن تصل إلى بيتها في أسرع وقت لتقابل صغيريها وتقبلهما.. المسافة بينها وبين بيتها بعيدة، لكنها لا تملك أجرة المواصلات.. كانت سميرة فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها، تزوجت منذ خمس سنوات، وأنجبت ولداً وبناتاً،

ولكن سامر لم يعيش طويلاً ليرى نمو صغاره، فقد غادر الدنيا إثر حادث قتل قيّد ضد مجهول. وهكذا وجدت سميرة نفسها وحيدة تصارع الحياة من أجل ولديها.

في بداية حياتها قررت البقاء قريباً من والديها، ولكن كثرة الأفواه وقلة الدخل جعلها تشعر بالثقل والعبء.. ومع أن أسرة زوجها كانت ميسورة الحال إلا أنها لم تستطع البقاء معهم بسبب نظرات الأب القاسية، وكلمات الأم الجارحة. شعرت بالبرد فأحكمت شد معطفها على صدرها.. وبدأت تسعل، هذه الآلام تعاودها منذ سنتين.. انتابتها بعد عملها في مصنع المطاط.. كانت أجواء العمل متعبة، فساعات الدوام طويلة وعوامل السلامة رديئة.. شعرت بمرارة وابتسمت.. ففي النهاية كان لا بد من التخلي عنها والاستغناء عن خدماتها بسبب حالتها الصحية.

وصلت إلى بيتها وتوجهت مباشرة إلى غرفة جارتها لتأخذ الأطفال منها. إنها تقيم في هذا المنزل منذ سنة ونصف.. هنا في الأحياء الخلفية من المدينة عالم آخر، عالم مليء بالمتناقضات، ففي الحي الواحد يقيم طيبو القلوب ويجاورهم المجرمون، وثمة ثمن لهذه المجاورة، يدفعه الضعفاء من دموعهم وجيوبهم، وأحياناً من أعمارهم.

- قرعت الباب وانتظرت للحظات قبل أن تسمع وقع الأقدام الثقيلة وهي تقترب من الباب.. ثم فتح وظهرت امرأة

بدينة قد عقصت شعرها إلى الخلف وارتدت قميصاً قذراً،
تبسم ابتسامة احتقار وهي تلوك قطعة "علك" ضخمة.
- بادرتها بالسؤال.. هل وجدت وظيفة هذه المرة؟
- نعم الحمد لله وسأبأشر في الغد.. قالت سميرة بفرح.
- حسناً.. لقد زادت الفواتير عليك، ولا بد أن تدفعي
المتأخرات.
- سأدفع لك كل شيء.. أشكرك على اهتمامك.. هل
تعشّت وفاء؟
- نعم.. لقد أطعمتها.
- وماذا عن أمين؟
- هو بخير.. لن أكون موجودة في الغد.. لا بد أن
تتدبري أمرك.
شعرت بالارتباك.. وأجابت بتلعثم:
- ولكن غداً هو أول أيامي في العمل، ماذا سأفعل؟
نظرت إلى السقف بلا مبالاة ثم قالت:
- إذا كان الأمر مهماً فسأجلس ولكن يجب أن تضاعفي
الثمن.
ارتبكت سميرة، ثم أجابت في استسلام:
- حسناً، سأفعل.
عادت إلى شقتها تحمل طفلها.. كانت مظلمة ورائحة
الرطوبة تملأ المكان.. أضاءت النور في حين بدأ الطفل في

التململ.. حتماً سيبيكي الآن.. إذاً هو جائع. شعرت بمرارة، كانت تعلم أن جارثها تستغلها، ولكن لا حيلة لديها.. هي مضطرة لتحمل الوضع هكذا.

في الصباح انطلقت مسرعة من منزلها.. أطعمت صغيرها.. ابنتها وفاء متعجبة وهي ترى أمها ترتدي ملابسها للخروج في ذلك الوقت. سلمت صغارها لجارثها وانطلقت إلى المدرسة.. كان عليها ارتداء ثياب العمل للبدء في أولى مهامها.. وجدت المراقبة قد وصلت إلى الموقع قبلها.. نظرت إلى ساعتها وسجلت شيئاً في أوراق كانت تحملها، ثم طلبت منها التوجه إلى سيارة الشركة لأخذ الملابس الخاصة.

كان عليها أن تقوم بدور أرنب يلاعب الصغار.. وجدت في حقيبة السيارة حقيبة كبيرة رسم عليها أرنب وردي.. أخذتها، وسارعت بارتدائها، واقتربت من فناء المدرسة.. وبمجرد أن رآها الأطفال أخذوا يتدافعون واصطدموا بها حتى كادت أن تقع.. شعرت بالسعادة لهذا الجو، تذكرت صغيرها تمنّت أن يكونا هنا مع الأطفال.. ربما تعجز عن اصطحابهم معها.. أخفى القناع الباسم الذي ترتديه دموعها.. لا تدري لماذا بكت.. من أجل أطفالها، أم حزناً على نفسها.

ارتفع صراخ طفل بسبب التدافع.. اقتربت منها معلمة مراقبة، نهرتها، طلبت منها الوقوف بعيداً عن الأطفال.. تنحّت جانباً، اقتربت منها المراقبة وعادت لتسجيل شيء في

أوراقها، ثم طلبت منها أن تخلع الرداء وتتوجه إلى مكتب مديرة المدرسة.. لم تفكر كثيراً في السبب. توجهت مسرعة إلى هناك..

- أوه يا عزيزتي.. يؤسفني أن أبلغك هذا الخبر.. لقد اعتذرت المدرسة عن مواصلة البرنامج.
- شعرت بالصدمة ولم تدر ما تقول.
تابعت المديرية..
- ولذلك يمكنك أن تراجعى المراقبة لتصفى معها حقوقك.

- أرادت أن تجيب.. ولكنها لم تجد شيئاً يمكن أن تقوله.. استدارت في صمت وتوجهت إلى الخارج.. كادت أن تسقط على الأرض.. لم تتوجه إلى المراقبة، غادرت المدرسة وأخذت تسير في طرقات المدينة على غير هدى.. الجو مكفهر ينذر بالمطر.. بدأت حبات المطر تتساقط.. الهواء البارد القادم من البحر جعلها ترتجف.. نظرت إلى حذائها، أصبح ممزقاً ولكنها لم تفكر في تغييره..
وصلت إلى بيتها.. وفي صمت أخذت طفليها ولم تجب سؤال جارتها عن موعد السداد.. ذلك المساء شاهد القمر ثلاثة أشباح يلتحفون الظلام.. من هم؟ أين ذهبوا؟ ماذا حصل لهم؟ لم يجد القمر إجابة.. وطوى البحر الأسئلة.

فاصل

مؤتمر الأدباء..

التفت خلسة إلى جاري، ورمقته بنظرة سريعة.. كان في العقد الرابع، انتشر الشعر الأشيب في رأسه، ولكن ملامحه السمراء دلت على قوة. كونت رأياً سريعاً عن صفاته، التفاته الدائم إلى الخلف أشعرتني بأنه فضولي يصرّ أن يرى كل الأحداث، لذلك لم أفكر ببدء الحوار معه، كنت أعرف من تجربتي أن هذا الصنف سيبدأ الكلام سواء أسألته أم لم تسأله.

كان المسرح مزدحماً وتنوع الأزياء يدل على اختلاف الجنسيات.. كنت منشغلاً بمطالعة مجلة أدبية، وحتى هذه المجلة لم تسلم من تطفل الجار الخلاسي.. وفجأة وضع يده على صورة لأديب في المجلة وقال: هذا هو.

نظرت إلى حيث أشار، فوجدت رجلاً في نهاية الخمسين من عمره والناس يقفون حوله يسلمون عليه، ثم تابع جاري:
- هذا هو صاحب المقال الذي قرأته.

ابتسمت له وشكرته وأبدت اهتمامي، ولكنني شعرت بالتذمر لقطع أفكاره.

- هناك عديد من الناس في هذه القاعة..
قطع جاري أفكارى مرة أخرى... رأيت من اللائق أن
أرد عليه..
- أوه نعم، بالفعل.
ثم عدت إلى صمتي.
- انظر إلى هذا الرجل.. إنه متدين متشدد بالرغم من
تحرره في كتاباته.
وأشار إلى شخص يجلس وحيداً ويراقب الحضور بعين
كالصقر.
- من أين هو؟
- يقيم في المهجر.. لا يهم من أين هو، فقد انقطع عن
قومه.
شعرت بالضيق منه وعدت إلى المجلة ثانية متمنياً سرعة
البدء لأسلم منه.
- هذا هناك.. شيوعي ماركسي. هو صاحب موقع
الرايات الحمراء.
التفت إلى حيث أشار.. كان شاباً في نهاية الثلاثين هذه
المرّة.. لا يزال صغيراً... هكذا قلت لنفسى.
- هذه الأدبية هناك.. متحررة حتى الشمال كما يقال..
وأضاف بخبث، ولكنها مغرية أليس كذلك؟
- رفعت عيني بحذر لأنظر إلى موضع إشارته..

فوجئت بالمظهر الذي بدت به.. كانت تحاول إخفاء سننها
من خلال طبقات المكياج، فبدت مقرزة بشكل كبير.
- من أين أنت؟
- قلت: من الخليج.
- أوه.. حركة أدبية ناشئة تحمل قوة، ولكن..
- لم التفت إليه، وظللت أنتظر أن يكمل كلامه.
- ولكنها متعاكسة.
- ماذا تعني؟
- أعني أنها تحمل التناقضات.. أدباء بلا أدب.. وأدب
بلا أدباء.
- كيف؟
- أسماء كثيرة تنشر لاتحمل أفكاراً ولا معاني كبيرة.
وأسماء مقلدة بيد أنها قوية.. ثم صمت قليلاً وأضاف.. لم
تظهر في يوم من الأيام سيتأمرون عليها.
عدت إلى المجلة ثانية ولم أعلق على كلامه.
- هذا هناك من الخليج.. صاحب موقع مشهور ولكنه
يجمع من حوله من يوافقونه في أفكاره.
أغلقت المجلة بحركة لاتخلو من غضب.. والتفت إلى
المسرح أتأمل الناس.. كان صوت جاري يصل إليّ وأنا أقلب
نظري في الأوجه التي أراها تمر في حركة دائبة داخله أو
خارجه من وإلى المسرح.. هذا هناك شاعر عربي بنصوص

أوروبية. الآخر مغرق في الوصف.. هذا هو التعبير الذي رأيته مناسباً له. هناك ثالث شعره يحمل همومه فقط، والرابع والخامس لا يختلفان كثيراً عنه. ترى أين هم شعراء أمتي وأدباؤها؟

بدأ المؤتمر الأدبي.. تناول أطروحات مختلفة، ولكنني لم أكن بينها، شعرت أنني غريب، الأسماء التي ناقشت غريبة عني، الأطروحات غريبة عن ثقافتي، كلها أسطوانات متكررة لأدب عالمي، وشعر عالمي، وقصة عالمية، لا مكان للعربية فيها. أحرف عربية بصياغة أوروبية. في المساء عدت إلى الفندق واستلقيت في تعب.. سحبت جهاز الهاتف ووضعتة جوارى على السرير، اتصلت بإدارة الفندق.

- مساء الخير سيدي.. كيف نخدمك؟

- أريد أن أتأكد من حجزى لو تفضلت.

بقيت عدة ثوان منتظراً.. ثم وصلني صوته:

- سيكون الإقلاع بعد ثلاثة أيام في تمام الساعة التاسعة

مساء.

- هل هناك رحلات قبل هذا الموعد؟

- نعم.. يوجد رحلة يومية.

- أيمكنني الحجز فيها؟

تأخر قليلاً ثم وصلني صوته:

- هناك رحلة في الغد في الموعد نفسه.. ورحلة هذه

الليلة بعد ثلاث ساعات؟
قفزت من السرير..
- احجز لي على هذه الرحلة سأكون جاهزاً في غضون
عشر دقائق.

فاصل

حالة نفسية..

"هذه ليست مذكرات كما قد يظن البعض.. ولكنها جزء من العلاج.. ومرحلة أوجب عليّ الطبيب أن أسير فيها حتى أتخلص من مشكلتي. وعموماً تبدو لي هذه الطريقة جميلة فلست مضطراً للكلام لكي أعبر عن مشاعري.. وما أكتبه هنا ربما لا يراه غيري.. وهذا يريحني كثيراً. في البداية لم أكن مقتنعاً كثيراً بهذه الطريقة.. ولكن وافقت لأقطع الطريق على إصرار الدكتور بأن أكتب كل شيء يدور بخاطري.. ثم سأكون مخيراً بين أن أعطيه ما كتبت.. أم أخفي أوراقى ليبقى الجميع في حيرة يفكرون في سبب صمتي المفاجئ".

أغلق الدكتور سامي الملف.. واتصل بسكرتيره وطلب منه ألا يُدخِل أحداً.. ثم طلب كوباً كبيراً من القهوة وعاد إلى القراءة من جديد.. كان ذلك الملف يتعلق بمريض اسمه سعد.. شاب في الثانية والثلاثين من عمره.. قدم إليه قبل فترة مع رجل آخر يعرفه سامي.. وبدا بصحة جيدة إلا أنه كان يرفض الكلام أو الإجابة على أي إنسان.. ولذلك لجأ

الدكتور إلى هذه الطريقة عله يخرج سعداً عن صمته ويعرف
السر خلف الجدار الذي يجلس أمامه.

قلّب الصفحات ليلقي نظرة على مواطن متفرقة، استوقفته
هذه الكلمات "أنا لا أدري متى شعرت بالتعارض حولي..
كان كل شيء يبدو لي منقسماً.. البيت والمدرسة.. الأقارب
والأصدقاء.. كنت أشعر أنني أعيش في المكان الواحد بأكثر
من صورة.. فأبي يأمرني بشيء تأمرني أمي بعكسه في بعض
الأوقات.. وفي المدرسة يطلب الأستاذ منا أن لاندخن، ثم
يأتي لزميلي ليطلب منه سيجارة.. وهكذا كل شيء حولي"..
توقف سامي عند تلك العبارات وأخذ يفكر.. صحيح ربما كنا
في أنفسنا نحمل تناقضاً يدركه هذا المريض.. ترى ماذا نفعل
بأطفالنا؟ وأي شخصيات سنكوّن فيهم.

أخذ سامي رشفة من القهوة وعاد يقرأ.. "موضوع الكتابة
هذا بدأ يروق لي.. لا أدري لماذا!! ربما لأنني أشعر أنني
أعبر عما في نفسي دون قيود أو خوف.. أنا أكتب لنفسي
فقط.. وإذا أراد الدكتور أن يقرأ فهو مسؤول عن نفسه أما أنا
فسأكتب ما في نفسي.. وأعبر كما أريد.. أذكر أن المدرس
ضربني وأنا صغير.. لم أفعل شيئاً.. فقط قلت له إنني لم
أتكلم.. وأن الذي تكلم هو ابن المدير.. فضربني واتهمني
بالكذب.. مع أنني حقيقة لم أتكلم.. يومها عوقبت مرتين.. من
أجل الكلام.. ومن أجل الكذب.. مع أنني قلت الحقيقة.."

توقف سامي وأخذ يفكر.. هل أفعل هكذا مع أبنائي؟ أنا مجرم في حق أولادي؟ هل يتكلم سعد عني؟ ترك الأسئلة وعاد يقرأ.. "يظن الدكتور أنني مريض نفسي.. أنا ابتسم الآن.. منذ مدة لم أشعر بهذه السعادة.. ولكن هل يشعر الآخرون بما أشعر؟ ترى لو طلبت من الدكتور أن يكتب كما أكتب الآن، ماذا سيقول؟" توقف سامي وأخذ يفكر.. نعم صحيح ماذا سأكتب.. أأدون مواعيدي؟.. ومشاكل العيادة المالية؟.. أم التباين في شخصيات المرضى؟.. أم زوجتي الغاضبة؟.. أم جاري الذي لم ألقه منذ أشهر؟.. شعر بصداع من كثرة الأسئلة وعاد للقراءة.. "ربما سيكتب كثيراً.. ولكن هل سيشعر بالسعادة مثلي الآن.. وهل سيكون صريحاً كما أفعل الآن.. مشكلة الذين لا يعلمون أنهم ليسوا بصرحاء.. أي أن من لم يجرب أن يكتب سيكذب على نفسه.. لأنه يكتب للآخرين.. ولذلك سيحرص أن يظهر بينهم بصورة حسنة".. صعق سامي لهذه الفلسفة.. ترى من هو المريض الآن؟ لا يمكن أن يكون كاتب هذه الكلمات مريضاً.. شعر أن سعداً يعرّيه أمام نفسه.. شعر أنه يكشف كل شيء أمامه.. كان يتقازم مع الكلمات.. كم يحتاج لشخص مثل سعد يكسر أصنام الكذب في داخله.. المركز والشهادات.. المجتمع والنفاق الاجتماعي.. كل هذا الكذب يحتاج إلى تفسير.

"منذ أن رحلت أمي رحمها الله شعرت بوحدتي.. كانت تعني كل شيء بالنسبة لي.. حتى أبي رحمه الله لم يكن قريباً مني مثلها.. كانت هي الأم والأخت والرفيقة وكل المعاني.. إذا أردت الصدق فتأمله في موقفين.. ضحكة طفل برئ.. ولمسة أم لأبنائها.. كل الصدق يرحل مع هذين".

ألقي سامي الأوراق ولبس معطفه وخرج من المكتب مسرعاً.. لا يمكن أن يجد سعداً لأن سعداً رحل ولن يعود.. انقطع عن الحضور إلى العيادة ولكنه أرسل إليه هذه الأوراق بالبريد.. أخذ سامي يقطع الطريق في عجلة.. وفي الجزء الآخر من المدينة وقف بيت في الظلمة.. توقفت السيارة عنده ونزل سامي يجري ليقرع باباً بدا مهترئاً نوعاً ما.. وينتظر الرد.. شعر بالثواني تمر كسيف يمزق عنقه.. قرع الباب ثانية وردد الصمت صدى الباب العتيق.. وعاد سامي ينتظر الرد.. وصله صوت ضعيف.

- من هناك؟

- أنا.. الدكت.. أنا سامي.

انقطع الصوت.. ووقف سامي ينتظر أحداً يفتح له الباب.. ولكن لم يأت أحد.. وفجأة فتح وظهرت امرأة عجوز.. في السبعين من عمرها تقريباً.. غطت رأسها بشال أبيض كعادة نساء القرى.. وألقت شيئاً منه على وجهها.. و.... نظرت إلى الواقف أمامها في شيء من الشك.

- من أنت يا بني؟
- أنا.. سامي يا أمي.
- لم ترد عليه.. ولكن نشيجاً حملته الصمت حكى
القصة.
- سامحيني أمي.. وألقى نفسه على يد أمه يقبلها.
- سامحك الله يا بني.
عاد سامي مع أمه في تلك الليلة.. وتحلق الأطفال حول
الجدة وهم يجرون.. وسامي ينظر إليهم.. نعم لقد كانت حالة
نفسية.. وكان يحتاج طبيباً مبدعاً صادقاً كسعد.

فاصل

الضياع..

لست من النوع الذي يتنصّت على جيرانه أو يحاول كشف أسرارهم.. ولكن الوضع مع جاري عادل مختلف.. فذلك الطالب الهادئ الرقيق جعلني أتطفل وأرغب في معرفته أكثر. بدأت القصة عندما سكن بجواري، وهو يدرس في المعهد العالي للموسيقى.. كان هادئاً تأنس النفس لمرآه.. وكنت ألتقي به في السلالم أو عند البقال فيحييني في خجل وينصرف.. كنت أرى خلف ابتسامته لمحة من الحزن، تخبرك أنه من تلك الأسر التي تربت في النعيم ثم أدركها فقر فبقي نقاء الأصل وهذب الفقر نفوسهم.

وكان يحمل معه آلته في كل مكان.. وكم رأيت في الحديقة القريبة يحضنها وينظر إلى النهر وقد رحل في عالم غير عالمنا.. أمرّ قريباً منه فلا يشعر بي فأعلم أنه غارق في تأملاته.. عجبت لمثله يحمل همّاً وهو في سن الانطلاق.. وظننته من النوع المتشائم في البداية، ولكن لقاءتنا المتعددة وأحاديثنا العفوية كشفت عن نفس حرة منسرحة.. ولكن الحياء يمنعها من الخلطة.. والشعور بالغرابة يبقيها في عزلة.

الليالي في بيتي الهادئ تجعل لدي وقتاً لأتابع معزوفاته..
ومع أنني لست من النوع الذي يهتم بالموسيقى وبالفنون إلا
أنني كنت أحب سماع مقطوعاته.. كان متقناً يحملك مع
الأنغام في عالم من التأمّلات.. عزفه الهادئ يعكس
شخصيته.. واختياره الأوتار الحادة يجعلك تشعر برغبته في
الصراخ كأن شيئاً يؤلمه.. ولكن العجيب أنني كنت أسمعه
يبكي في كل ليلة، هدوء الليل في هذه المناطق.. والطريقة
التي تبنى بها البيوت في المدينة يجعلانني أسمع بكاءه وأشعر
بألمه وكنت أتعجب وأتطلع إلى معرفة مايجري في غرفة
ذالك الصغير.. وكم مرة قمت من سريري ولبست معطفي
لأذهب إليه.. لعله يشكو من شيء فأقف إلى جواره، ثم
يدركني الحياء فأقول وما شأنك أنت.. رجل في بيته ويبكي
ربما وصلته رسالة من أحد أهله فألمته.. وربما يبكي غربته
وبعده عن موطنه.. فأعود إلى فراشي ثانية وأدعو على تطفلي
وعلى الموسيقى التي سببت لي هذا البلاء.. ولكنني في النهاية
عزمت على الحديث معه وبدأت تحيّن الفرص.. حتى جاءت
الفرصة سانحة في أحد الأيام.. وكان الجو صافياً والنسيم
عليلاً فوجدته في الحديقة يقرأ كتاباً فاقتربت منه.. فلما رأيته
هش لي ودعاني للجلوس فاقتربت منه، وحييته بابتسامة
وانطلقنا في حديث عن الجو، والأهل، والغربة، والدراسة،
والتخرج، والوظيفة، والزواج.. فسألته..

- عادل.. هل تشكو من أي مرض؟
تعجب من سؤالي.. ورد بنفس متوقدة..
- لا والله الحمد.
- هل تحن لأهلك؟
- الحنين وارد بلا شك.. ولكنني أشعر بالراحة هنا أيضاً.. حتى إنني أفكر أن أبقى هنا بعد تخرجي.
- متى ستتخرج؟
- بإذن الله هذا هو الفصل الأخير.. ولكن.
- لكن ماذا؟
- صدرت عن صدره آهة عميقة شعرت بحرارتها تحرق قلبه.. ثم رد في مرارة..
- وماذا بعد؟
- بعد التخرج.. يأتي التعيين بإذن الله.
- التعيين طلب الرزق بالمعصية؟
- ...
- ربما تريد أن تصل إلى سبب بكائي.. أليس كذلك؟
فاجأني بالسؤال.. فلم أرد عليه..
- الحقيقة أنني شعرت أنك سمعتني.. والمشكلة يا أخي أن منازل الورق التي نعيش فيها تفضح كل شيء حولنا.
- إذًا.. ماهو السبب يا عادل صارحني.
- اسمع يا أخي.. لقد نشأنا في بيوت بسيطة.. وكنا

نعرف أن الله يعطي النعم لأننا نعبده.. فإذا عصيناه تحولت هذه النعم.

- وأين المعصية في حياتك؟

- لقد كنت أشعر بالتميز من أجل دراستي.. ولكن هناك فرق بين ما أدرسه، وما أقرأه عن تاريخ أمي.

- ولكن هذا رزقك.. وحياتك يا عادل.. والله غفور

رحيم.

- نظر إلي في هدوء وابتسم.. ثم رد.. أما الرزق فهو يأتي من الله، فلو حرم عاصياً فقد أنصفه.. وأما حياتي فما نفعها مع غضب الله.. ثم حبس عبدة كانت تريد أن تخرج واستأذن وتركني وقام.. ثم التفت ثانية وقال المشكلة أن نفسي ضعيفة تعجز عن الوصول إلى الطريق.

لم تتغير حياتنا كثيراً في الأيام التالية.. شيء واحد شعرت بتغييره.. وهو أن جلسات العزف بدأت تقل حتى انقطعت.. وصوت البكاء بدأ يتغير.. ولكنني لاحظت أنه يخرج من غرفته كل يوم بعد منتصف الليل أو قريباً من الفجر.

في البداية لم يكن الأمر يشغلني كثيراً فقد أخذتني الظنون كل مأخذ.. وابتسمت وقلت مرحلة شباب.. ولكن لما كثر الأمر شعرت بالقلق عليه.. فسهرت في ليلة من الليالي ولما شعرت به يتحرك قمت وارتديت معطفي.. وخرجت في

أثره.. كنت أتبعه بحيث لا أفقده ولا يراني. كان السكون يوحى بالرهبة والطمأنينة.. أحسست أن نفسي تبتعد عني.. وبدأت ودقات قلبي تعلو.. ومع انكسار المصابيح على الجدران جعلت أذكر الله من خوفي.. حينها ارتفع صوت المؤذن محطماً رهبة الليل " الصلاة خير من النوم " .. انتابني رغبة في البكاء.. لم أصل الفجر في المسجد منذ زمن.. سأصلي ولكنني أريد أن أعرف أين سيذهب عادل.. رأيته متجهاً إلى منتصف المدينة.. كنت أفكر ماذا سيفعل هناك في هذا الوقت.. ترى هل هو على موعد مع أحد.

توقفت الرحلة عند هذا الحد.. فقد وصلنا إلى الجامع الكبير.. ودخل عادل إلى المسجد.. كان متوضأً، فوقف يصلي ركعتين.. وبقيت أنظر إليه.. لقد عرف الطريق.. ومع وقوفه في الصف توقفت دموعه، واتخذ القرار.. ووقتها انتهى الضياع.

فاصل

طائر المئذنة..

تتعلق الأرواح بالطيور والأحجار..
ولكن متى؟؟
إذا ارتبطت بقلب ونبض..
في طيور السماء حب ووفاء..
وفي أحجار الأرض أنس وعطاء..

(1)

يوم الأحد.. الساعة الواحدة ليلاً.
أبي.. ترى هل ستصلك رسالتي هذه، وإذا وصلت فهل
سترد.. أشتاق إليك كثيراً في غربتي.. أنت معي في كل
لحظة.. وكل شيء أراه يذكرني بك.
أقيم في الدور الرابع في شقة صغيرة.. اطمئن، لا تخف
على دراستي فالأمور تسير بشكل جيد.. تطل غرفتي على نهر
كبير.. وفي الضفة الأخرى من النهر مسجد المدينة بمئذنته
السامقة.. تقابل المئذنة نافذة غرفتي.. وفي الليل أنسج مع
المئذنة الخيالات وأضع الصور.
حارس المسجد العم ناصر رجل كبير، في الخمسينيات..
مازال متمتعاً بقوة ولكنك تشعر حين تراه بقسوة الحياة التي
عاشها.. أشعر أنه لا يستطيع الالتفات إلى المئذنة، ربما
تحوي ذاكرته قصصاً ومواقف.. لا عليك يا أبي لقد عزمت
على الجلوس معه والتعرف إليه أكثر وسماع قصة المئذنة
منه.. التاريخ يا أبي يقول إن الإسلام انتشر هنا، إن المساجد
كانت تمتلئ بالمصلين.. ولكن لماذا تتغير الأرض بهذه

الصورة.. أطلت عليك يا أبي سامحني.. أنتظر ردك.

* * *

يوم الاثنين: الساعة الثانية عشرة ليلاً.

اليوم خرجت من غرفتي.. وقررت التوجه للمسجد.. لم أزره كثيراً، كان صمته مهيباً.. يحيط به سور حجري كبير قديم.. لم تؤثر الأيام على السور، ولكن لونه تحول إلى الأخضر المسود بسبب ما نبت عليه من طحالب.. السور قوي، كأنه مصمم لمواجهة الحرب.. وفي الداخل ساحة خضراء كبيرة.. لم يعترض طريقي أحد.. فواصلت مسيري متلفتاً.. كان المكان مرتفعاً وبدت لي جبال في الأفق، تسلقت السور لأرى المدينة، فرأيت ذاك النهر، كان كل شيء هادئاً.. ونسمات الهواء تداعب وجهي.. نظرت خلفي.. المسجد يبدو شامخاً.. والمئذنة تقف في صمود.. بدت لي آثار دمار لم أتبينها من قبل.. اقتربت من المسجد.. فرأيت حوض ماء وسط الساحة الخضراء.. وحول الحوض صمم بناء دائري يحيط بالماء.. ومن حوله صف دائري من الكراسي بدا أنه لم يستخدم منذ فترة طويلة.. حاولت تخيل الصورة قبل أن يهجره الناس.. ورأيت الرجال يجلسون على هذه الكراسي ويتوضأون هنا.. وأصوات الأطفال وهم في كتاب المسجد يتعلمون القرآن.. فتحت عيني على الفراغ ثانية

وواصلت مسيري متأملاً.. لم أتوجه إلى المسجد بل التففت عليه.. ووصلت لباب المئذنة.. كان باباً خشبياً قديماً، لكنه جميل.. تحسسته بيدي.. كان ضعيفاً.. يمكن أن أفتحه لو اتكأت عليه بقوة.. خطر على بالي أن أصعد المئذنة لأرى المدينة من فوق.. وفعلاً دفعت الباب فأحدث صريراً أزعج السكون.. ووجدت نفسي داخل مئذنة مهجورة.

(2)

كانت المئذنة من الداخل مظلمة.. باردة.. وبدا لي أنها لم تستخدم منذ فترة طويلة.. كان الغبار يملأ الأرض.. والسلم الحلزوني الملتف يعانق الفضاء المظلم.. شعرت بقشعريرة تملأ نفسي.. لا أدري يا أبي أكان خوفاً أم وحشة أم هيبة للمكان.. حاولت أن أبصر نهاية السلم فلم أستطع لكن استرعى انتباهي وجود فتحات تبعث بعض النور.

ابتسمت لنفسي.. إذاً هاهنا بعض الضوء.. يمكنني أن أتسلق لأرى ماذا في الأعلى.. بدأت الصعود.. كان الطريق متعباً وبدا لي أنني سأصل إلى السماء.. عليّ الحذر فالدرج يبدو مهترئاً في بعض الأماكن.. كما أنني أجهل طبيعة المكان.. كنت أفكر هل يمكن أن يوجد أحياء في هذه المئذنة.. فكرت في الثعابين ربما وجدت بعضها أن المكان مناسباً فقررت الاستقرار فيه.. لم أفكر بالنظر إلى الأسفل، فقط كنت أتخيل الصورة.. فراغ أسود عميق ولذلك واصلت صعودي إلى الأعلى.. كلما مررت بنافذة نظرت من خلالها لأرى المدينة والقرى القريبة منها.. كان المنظر يختلف كلما

صعدت أكثر. أحسست بالسعادة.. بدأ خوفي يتلاشى.. وصدى
خطواتي يبعث في نفسي نوعاً من الأناقة.
وأخيراً وصلت أعلاها.. كانت المدينة تبدو صغيرة
والجبل في الخلف قد غطى جزءاً منها.. كما بدا لي النهر
كبيراً وقوياً.. وهناك رأيت غرفتي.. ابتسمت وأخذت أستنشق
الهواء.. كم تبدو دنيانا صغيرة يا أبي.. ولكنها قاسية مؤلمة
على صغرها.. فكرت فيك وفي أمي.. فكرت في إخوتي..
فكرت في نفسي وفي غربتي.. ومع زحف الضباب على
المدينة زحفت الذكريات كالسيل تهاجمني.
أخذني الوقت وأنا في موقفي فلم أنتبه لنفسي.. اقترب
وقت صلاة المغرب وعليّ النزول بسرعة قبل أن تظلم الدنيا..
لمحت العم ناصر يدخل إلى فناء المسجد ومعه رجل آخر..
استدرت بسرعة لأنزل قبل أن يراني.. وفي الطريق لمحت
منظراً أذهلني.. عش طائر وبدخله فرخ صغير.. يبدو أن أبويه
قد هجرا العش لسبب من الأسباب فلا شيء يفسّر، تأخرهما
عنه.. بدا الصغير جائعاً.. التفت حولي فلم أجد ما أطعمه به،
ثم خطر على بالي أمر لا أدري يا أبي أصائباً كان أم لا..
رفعت العش بهدوء، وأخذته معي.. وبدأت في النزول السريع.
كنت أفكر طوال الطريق، ما الذي أفر أبويه عنه.. وهل
قسا قلباهما فتركاه في هذه المئذنة وحيداً.. قطعت الطريق
بسرعة.. أصابني الإرهاق وأخيراً وصلت إلى الأرض.

كان العم ناصر جالساً مع بعض الرجال الكبار في ساحة المسجد.. خرجت من المئذنة دون أن يلمحني أحد منهم.. ولكن لا أستطيع عبور الساحة بمثل هذه البساطة.. فقررت العبور بهدوء.

لمحني العم ناصر..

- هيه أنت يا فتى، تعال هنا؟

- اقتربت منهم بهدوء.

- أووه هذا أنت يا بني.. ما الذي كنت تفعله في

الخلف؟

- كنت أشاهد الساحات وأرقب المدينة.

- حانت منه التفاته إلى الطائر.. وما هذا الشيء في

يدك؟

- طائر صغير وجدته وحيداً.

- أرني إياه..

- مددته إليه.

- هذا طائر صغير.. لا يمكن أن يخلو العش من أحد

الوالدين.. إلا إذا..

- ماذا يا عم؟

- إلا إذا ماتا.. الأطفال هنا يعيشون بالطيور.. أحسنت

صنعاً بأخذه. ولكن هل تستطيع الاعتناء به؟

- سأحاول.. وابتسمت.

- حسناً.. قم بطحن الحب له فهو لا يزال صغيراً.. وهيا
بنا حان وقت المغرب.
صلينا المغرب.. وخرجت مسرعاً إلى غرفتي لأطعم
صغيري.. مررت بمحل صغير في الحي أحب أن أشتري منه
أغراضي.. طلبت منهم كيساً صغيراً من الحبوب وركضت
باتجاه البيت.

(3)

يوم الجمعة: الساعة الواحدة ليلاً.
أتدري يا أبي.. أشتاق إليك دائماً وأتذكرك كلما رأيت
الرجال في المسجد.. مسجدنا قديم تشعر بالرهبة والسكينة
يملاًن نفسك بمجرد أن تفتح بابه.. لو رفعت رأسك إلى
السقف ستري أنه يحتاج إلى ترميم. كما أن الإضاءة فيه
ضعيفة.. تفوح منه رائحة طيبة ولو لم تضع فيه عطراً.. فرش
بسجاد قديم، ولكنه فاخر.. وفيه عدة أدراج خصصت لوضع
المصاحف.. وقد علا الغبار أركانه.. ترى في الصف الأول
مجموعة سجاد صغير، هذا السجاد خاص بالعم ناصر
وبعض الرجال الذين يحرصون على الجماعة.. وفي مؤخرته
وضع إناء فخار فيه ماء تفوح منه رائحة البخور.
نسيت أن أقول لك إن صغيري بصحة جيدة.. وضعت
عشه قريباً من سريري، في مكان أراه وأرى المئذنة من
خلاله.. وقمت بطحن الحب له.. قررت أن أسميه وحيد..
لأنه من دون أصدقاء.. أتدري يا أبي أشعر أنني مثل طائري،
وحيد في عالمي إلا من الذكريات.

أصحو كل يوم.. أرسل قبلة للمئذنة وأرتدي ملابسني..
وأتوجه إلى مدرستي.. أراك هنا في كل صفحة.. في كل
سطر.. في قلبي اسمان.. الأسرة، والمبدأ.. وتحت كل منهما
توقيعك.

يوم الثلاثاء: الساعة الحادية عشرة ليلاً.

تعود وحيد على يدي وبدأ تغريده يملأ البيت.. ضحكت
اليوم عليه وهو يحاول أن يتعلم الطيران.. أجنحته لا تزال
ضعيفة، ولكنه سيطير سريعاً.. أعجبني عزمه ومحاولاته
المتكررة.. في كل مرة يقع كنت أرفعه ثانية.. فيعود للوقوع
من جديد.. وفي المساء ينام بين ذراعي. أفكر فيه الآن،
أشعر أنه يفهم كلامي.. ويأنس برؤيتي.. هو صغير في
حجمه، ولكنه يملأ فراغاً كبيراً في قلبي.. أشتاق إليه وأسبق
الوقت للعودة إلى غرفتي لأجلس معه.

أتدري يا أبي.. أشعر بالألم إذا فكرت فيك.. وما الفائدة
أن أمضغ الذكريات دون أن أراك.. مرارة الأيام تؤلمني يا
أبي.. لماذا يقسو الناس على بعضهم؟ لماذا تختفي كل
حسنات الإنسان إذا أخطأ؟ ولماذا تختفي الكف الحنون التي
تقبل العائد؟

آه يا أبي.. صور العشق التي ترسم في نفوسنا تحيينا
بالأمل.. وفي قصاصات الأوراق تتعانق الأرواح.. وفي

عالمك أرحل.. وتحت ظلالك أستظل.. وفي تغريد وحيدي
أرى طيفك يبسم لي.. يشجعني.. ويأخذ بيدي في عالم لم
أعد أميز معالمه.
أتدري يا أبي.. أصبحت في كل يوم أقص ورقة من
التقويم فرحاً وأشعر أنني قصصت ورقة من غربتي، معها..
وأتظر موعد الرحيل.

(4)

يوم الأحد: الساعة الثانية ليلاً.
كبر وحيد يا أبي.. وأصبح يطير بمهارة.. كما أضحى،
يخرج من الغرفة ويعود إليها.. أتدري يا أبي.. أفقده كثيراً إذا
عدت إلى الغرفة ولم يكن موجوداً فيها.. أتصدق رأيتته يطير
كثيراً باتجاه المئذنة، شعرت أن شيئاً ما يربطه بها.
ترى هل يشعر صغيري أنه فقد أبويه هناك؟
وهل يشعر أنها منزله الأول؟
أرقبه الآن بجوار المدفأة.. أغمض عينيه وغفا.. وتركني
مع أوراقتي ومعك.
آه يا أبي.. أشتاق إليك.. ليتني كنت أستطيع التحليق
لأزورك.. أبتسم لهذه الخواطر، وأعود من جديد إلى أوراقتي
وقلمي.

* * *

يوم السبت: الساعة الواحدة ليلاً.
أبي.. هل هي النهاية؟ لم يعد وحيد من عدة أيام.. ترى

أين هو الآن؟

فتحت له النافذة كالعادة في كل صباح، ولما عدت لم
يكن موجوداً.. ترى هل رحل؟
انتظرته طوال اليوم.. وحقيقة يا أبي بكيت من أجله.. لا
أدري لماذا رحل..

بل أظن أنني أعلم.. لقد رجع إلى عالمه.. كنت شيئاً
عابراً في حياته يا أبي وها قد عاد إلى دنياه.. كل شيء عابر
في هذه الحياة.. حتى من نحبهم يرحلون.. تمزق الأيام
الشمس فنعود في ليالي العمر الباردة نحضن الذكريات.. في
هذه الغرفة يا أبي موقد.. حتى أخشابه تحترق.. كل شيء
ليس سوى محطة سرعان ما تنتهي.. ومع آخر محطة تنتهي
حياتنا.

* * *

يوم الأحد: الساعة الواحدة ليلاً.

أنا سعيد نوعاً ما يا أبي.. أتدري لماذا؟

قررت هذا الصباح البحث عن وحيدتي.. لم أكن أعرف
مكاناً يمكن أن أجده فيه غير المئذنة.. ومع إشراقة الشمس
توجهت إليها.. لم أبال ببرودة الجو في هذه الساعة..
ارتديت معطفي وانطلقت.. لم يكن هناك أي إنسان في
الطريق.. تخيلت أن كل شيء قد تجمد.. صوت الأشجار كان

هو الشيء الوحيد الذي لم يصبه الخرس.
وصلت إلى ساحة المسجد.. توجهت في ثبات نحو
المئذنة.. كنت قد عرفت الطريق جيداً هذه المرة.. لم يتغير
شيء منذ زيارتي لها.. كان قد مضى على الزيارة الأخيرة
قراءة الثلاثة أشهر.. صعدت السلم الحلزوني مسرعاً.. وهناك
في الأعلى وجدته يا أبي.
كان وحيد قد بنى عشاً جميلاً في الأعلى، وكانت معه
أنثاه.. وقد حضنا بيضتين صغيرتين.. عرفني فلم يشعر
بالانزعاج مني.. مسحت عليه برفق.. ونزلت مسرعاً.. توجهت
لغرفتي أخذت كيس الحبوب ورجعت ثانية.. تركته لهم
واستدرت ثانية.. إلى غرفتي.
هذه المرة كانت الحياة قد دبت في كل شيء.. وابتسم
الكون كله.. إلا شخص واحد كان يسير مطأطئ الرأس،
يخفي دمعة.. كان ذلك الشخص هو أنا يا أبي.
في فراشي الآن أسطر لك هذه الرسائل.. وسأحرقها حين
أنتهي من كتابتها.. لكنني واثق أنها ستصلك، وأشعر أنك
معي.. للأحياء أرواح تسري عنهم وتؤنسهم.. وفي أرواح
الأموات وجدت الحياة.
في كل صباح سأعانق المئذنة.. وأستمع إلى تغريد
وحيدي.. وحين يأتي المساء سأجتمع بك تماماً كما كنت
أفعل قبل أن تموت.



فاصل

عصا الغريب..

الوقت منتصف الليل.. ونسمات باردة تداعب خصلة شعر
تدلت على جبين الغريب.. وابتسامة منكسرة ترتسم على
شفتيه.. ونظرة بعيدة ساهمة تروي قصته.. وعصا من خشب
الزان تعانق ظلال نار ملتهبة.. وأصوات مختلطة تمزق
صمت الليل.. ذئب يعوي في البعيد.. حطب تأكله النار..
وصوت رياح خفيفة يضيف رهبة على المكان.. أحس بالبرد
يلامس ظهره فارتجف.. ضم رجليه إلى صدره واتسعت
ابتسامته.. ورحل مع الذكريات.

يريد أن يشعر بالاستقرار.. تذكر بداية قصته.. تخرجه من
الثانوية وانتقاله للدراسة في مدينة أخرى.. أبعدته تلك الفترة
عن أسرته كثيراً.. ومع أنه كان دائم الاتصال بهم، إلا أنه
شعر بغرته يوم أن عاد إليهم بعد التخرج.. حتى تلك الفتاة
التي اختارها للزواج لم تكن بأسعد حال من أسرته، ولم
تفلح في كسر حدود صمته.. أو إخراجه من شعور الغربة
الذي يسيطر عليه.

ارتاح لمنظر الجمر.. وشعر بالدفء حين قرب يديه

وجسمه من النار.. ترى كيف ينقل هذا الشعور إلى عواطفه؟ الجمود بينه وبين الناس، والعلاقات المحدودة، والرغبة في الابتعاد، انهماكه في عمله الذي أخذ نفسه ووقته، بدت كل تلك الذكريات صوراً تومض مع لهيب النار.. تمنى لو يشعر بهذا الدفء في العالم من حوله.. لم يكن يؤنب نفسه في تكوين شخصيته.. فهو الطالب الواضح، الصريح.. يحب أن يحدد أهدافه، ويسعى لتنفيذها في قوة وصلابة.. ولكن البعض لا يوافق في إصراره العجيب.. أخذ جمرة وألقى بها وسط الجمر ووضع إبريق ماء وعاد لتأملاته.

ابنه بدأ يأخذ طباعه.. يقولون إنه عنيد، ولكنه سعيد برؤية ابنه بهذه الصورة.. ليس عنيداً، ولكنه شجاع وجريء.. أدبه كأحسن ما يكون الأدب، وعلمه أن لا يسكت على الظلم.. ربما هذا مايزعج البعض منه.. حتى ابنه يقضي وقته بين الكتب والحاسوب.. ويأنس للبحر والجبال.. إذاً هو صورة من أبيه. ابتسم لهذا الخاطر.

شعر أن الوقت تأخر فقام إلى المكان الذي أعده لنومه.. مغارة صغيرة في جبل مفتوحة من الجانبين ولكنها تضيق في أحدهما، أغلقها من تلك الناحية ببعض الصخور، وفي طرفها بقيت النار مشتعلة توفر له الدفء ونوعاً من الأمان.. أغمض عينيه في محاولة لاستراق غفوة يرتاح من عناء يومه وطول الطريق.

عادت له الذكريات.. الوظيفة التي يطمح إليها الكثير ممن هم في سنه، وكلمات الإعجاب التي سرت في عائلته.. وغيره البعض منهم من التوفيق الذي ناله.. وانتقاله بزوجه إلى مدينة جديدة.. ثم الترقية السريعة التي لم تكن تخطر على بال.. والمعاناة التي أعقبت تلم الترقية والخلاف بينه وبين بعض رؤساء الأقسام في التعامل مع اللوائح والأنظمة التي تخص المؤسسة.. كل تلك الأفكار زاحمت رأسه ومنعته من النوم.

ارتفع عواء ذئب قريب نقله من عالمه إلى عالم الذئاب.. كم يغبطهم على رفقتهم.. تمنى لو كان ليلاً أو ذئباً.. لا يهم المهم أن يكون واحداً منهما ليرافق مع الآخر. وتذكر الصعاليك وعشقهم لليل وأنسهم بالذئب. فابتسم في حزن.. كان بعض الصعاليك شريفاً في قومه، ولكنه تمرد على بعض الأوضاع التي سادت في الجاهلية وخرج على قومه.. وبدا له أن التاريخ يعيد نفسه في صورة أكثر تحضراً، وأكثر وحشية.. ففي عصر الصعاليك كان الناس يحفظون العهود ويكرمون الضيف ويتمثلون بالعادات الحسنة إضافة إلى الشجاعة النادرة وعدم الغدر. أما الآن فقد ضعفت الروابط الاجتماعية وحلت مكانها ماديات مقيتة في التعامل مع الآخرين، وأصبحت المصالح هي الأساس في العلاقات.. اخذمني أخدمك.

عاد لصوت الذئب أحقاً يأنس له؟ لماذا؟ أل هذه الدرجة توحشت نفسه فعاد يأنس للذئاب أكثر من البشر تماماً

كالصعاليك؟ إنه لم يطلب سوى الحياة الكريمة.. كل الذي أرادته من الناس الصدق.. والحرية والطهارة.. لا يريد الظلم.. أراد أن يكون لله، ويحب لله.. أراد أخوة لأطماع فيها ولا رغبات خاصة.. أراد أن يقول الحق في هدوء وتقدير للمقابل ويقبله الآخر في رضى وسعادة.. أكانت هذه الطلبات مستحيلة؟ هل هي ثقيلة حتى على الأخيار؟ لماذا شعر بفجوة بين النظرية والتطبيق؟ لماذا يتشدد الناس بالمبادئ ثم يقفون عاجزين أو بالأصح غير راغبين في تطبيقها على حياتهم؟

شعر بثقل الأسئلة على نفسه وتردد الإجابة في صدره.. وبدأ النعاس يغزو عينيه.. لم يطل الوقت في التفكير فقد بدأ يرحل في عالم الأحلام.. هادئ النفس قريها.. قام من نومه قبل الفجر.. وتوضأ من ماء قريب، ووقف يصلي.. شعر أنه انقطع عن الأرض بصلاته ومناجاته.. كان يحتاج للاتصال بالله، وأحس أن نفسه سكنت.. اضطجع على جنبه الأيمن وبدأ يستغفر الله وينتظر وقت الفجر.. دخل الوقت فصلى السنة، ثم صلى الفجر.. وفي صمت حمل عصاه وتابع المسير.



فاصل

ضيف الشتاء..

كان الجو كله يوحي بالرهبة.. فرياح الشتاء تعصف في الخارج فتبدو كقطيع من الذئاب تعوي في الغابة القريبة.. وذلك الضيف الجالس أمامي يجعلني أشعر بأنني لا أزال طفلاً.. كان غريباً عني بالرغم من قربه.. فأخر مرة رأيته فيها كانت قبل خمس سنوات.. كنت حينها مسافراً، لم أع الكثير من كلام أمي.. ولكنها قالت لي سوف ترى أباك.. ثم لم تعد تكلمني في الموضوع.. ورأيته وقتها ولكنها كانت زيارة خاطفة.. لم يلتصق في ذهني منها سوى الجلسات الطويلة التي كان أبي وأمي يقضيانها معاً وتصلني بين لحظة وأخرى كلمة طائشة لا تشكل جملة في النهاية. كان يكثر من الاعتذار وقتها، ولم تكن أمي تصدقه فيما يظهر فكانت تبتسم في سخرية.

- الجو شديد البرودة.

- نعم صحيح هذا موسم العواصف.. يبدو أنك نسيت ذلك.

- في الحقيقة لم أنسه.. بل تعمدت المجيء في هذا

الوقت من السنة.

- اقترب من المدفأة.. قلت ذلك واقتربت منها ووضعت
ذقني على ركبتي وبدأت أتأمل في صوت تكسر الأخشاب
المحترقة.

قطع تفكيري صوته:

- يبدو المنزل جميلاً.. أليس كذلك؟
- بلى.. تبذل أمني جهداً كبيراً للمحافظة عليه..
صمت بعدها، ربما كان من الأفضل أن أشكره لأنه هو
من اشترى المنزل، ولكنني لم أجد رغبة لذلك.
- كيف تجري أمور دراستك؟
- بخير..

أردت أن أقول له إنني سأرحل إلى العاصمة لإكمال
الدراسة الجامعية هناك.. ولكن شعرت بالكسل وعدم الرغبة
في الكلام. ران الصمت علينا لفترة.. ووجدت أنه من اللائق
أن أشعره بأهميته، قلت له: - أمني قد لا تأتي الليلة..
ستبيت عند خالي.

- أعرف، ولذلك أتيت..

فاجأني رده.. وشعرت بالغضب من أجلها.. أردت أن
أقوله له لماذا تركنا ولكن فضلت عدم التدخل في هذه
الأمور. قطع الصمت مرة أخرى.
- أغضبت من أجلها؟

تفاجأت.. قلت في ارتباك:
- لا.. في الحقيقة... نعم ربما قليلاً.
- يعجبني هذا الشيء.. أنت ابن أبيك.
- لم أفرح كثيراً بالتشبيه.. ومع أنني سمعته مراراً من
أمي وجدتي إلا أنني تمنيت أن لا أشبهه.
- ربما تتساءل لماذا فعلت ذلك؟
قالت لي أمي ذات مرة إن أبي يقرأ الأفكار.. ولكن ما
قاله لي أذهلني مرة أخرى.. قلت له متظاهراً بعدم الاهتمام:
-لماذا تظن ذلك؟
تنهد ثم قال:
- لأن النفس الإنسانية هكذا.. كثير من الأمور يا بني لا
تفهم في وقتها.. نحتاج وقتاً لفهم لماذا حدث كل ذلك.
تأملته دون أن أشعره بأنني أراقبه.. عروق يديه تظهر
بشكل ملفت للنظر.. وشعر أشيب في جانبي الرأس.. ونظرة
حادة انعقد فوقها حاجبان جميلان.. شفاه ممتلئة.. وعيون
أنهكتها النظارات.. هكذا بدا أبي وهو في الخامسة
والأربعين.
- تابع كلامه بهدوء.. لقد كبرت وبدأت تفهم الحياة..
ولكنك تحتاج وقتاً لتكوّن خبراتك.. وعندما تصل لمرحلة
النضج ستدرك الكثير من المعاني.
- ...

- هل تحب أمك؟
تعجبت من السؤال وقلت:
- نعم بالتأكيد.
- ربما تكون متعباً لها أكثر مما تكون مفيداً.. حين تفكر
فيك أمك وتحمل همك ولا تساعدك عندها ستكون عبئاً.
وربما كان هذا سبباً من الأسباب التي جعلتني أرحل يوماً ما.
- أهذا عذر؟
- ربما يكون عذراً.. ولكن هذا وقته.. أنا أعلم أنك
سترحل لتكمل الجامعة في العاصمة.. لقد كبرت يا ولدي..
وآن أن تفهم ماذا حدث. لم يكن الأمر بيدي ولا بيدها.
- وأنا؟
- أنت أكبر الأسباب التي جعلتني أضع حداً للحياة..
كان لا بد أن تعيش أنت، وهذا يعني رحيلي.
انقطع الكلام بيننا وكأننا لم نعد نريد الحديث في
الماضي.. وفجأة وقف وقال:
- إذاً يا ولدي الحبيب سأرحل الآن.. أمل أن أسمع
أخباراً جيدة عنك.
- إلى أين؟ العاصفة قوية...
وقفت ووقف وربت على كتفي وقال:
- لا عليك، لقد تعودت عليها.. لا بد أن أمك أخبرتك
أني أحب الثلوج.. كدت أموت ذات مرة من أجل أن أراك

أنت وأمك.. كنت صغيراً وقتها.
ابتسمت وقلت:
- أدري.. حدثني أمي بذلك.
- بلغها سلامي.. وابق على اتصال بي.
فتح الباب في عزيمة وخرج متلفعاً بمعطفه.. بقيت واقفاً
أراقب خطواته على الثلج.. لم أهتم بالعاصفة.. كان الثلج
يضرب وجهي بقوة.. ومن أجل ذلك الإنسان كانت دموعي
تسيل.

فاصل

أسرار..

حياتنا كلها أسرار..
يعرف البعض جزءاً منها..
والجزء الآخر نصرّ على كتمانها ليرافقنا في قبورنا..
بين صدر وقبر تدور همومنا..
ولمن نحب..
نهدي أسرارنا..

(1)

- المكان: مطعم السكن الجامعي.
الوقت: الساعة العاشرة مساءً.
الصورة: عدة طاولات يجلس عليها مجموعة من الشباب
يضحكون ويتناولون شيئاً من العصير.
- عبد الرحمن.. هذا زميلك يجري كالعادة.
 - يلتفت عبد الرحمن إلى حيث أشار يوسف.. ليرى
سعداً يجري متوجهاً إلى السكن.
 - يعجبني إصراره.. قال يوسف.
 - رد عبد الرحمن مبتسماً.. غريب.. ولكنه ودود.
 - أفكر أحياناً أنه لا يشعر بوجودنا من حوله.
 - نعم.. ربما كان كذلك.. نظرتة الساهمة في بعض
الأحيان توحي أنه ليس من هذا العالم.
 - تدخل صوت ثالث.. نظرتة الساهمة!! بل قل نظرتة
الحادة.. لم أر عينين كعينييه.
- ضحك عبد الرحمن
- لكن صدقوني لو تعرفونه عن قرب لأحببتموه.

- ربما كان كذلك.. ولكن عن نفسي يكفي أن أراه كل يوم يجري متوجهاً إلى غرفته.
وعاد الجميع إلى حديثهم السابق ونسوا أمر سعد.

السكن الجامعي يتكون من عدة مباني.. وكل مبنى منها يتألف من عدة أدوار.. وفي الدور الواحد أكثر من شقة.. وكذلك الشقق هي مجموعة من الغرف.. يسكن في كل غرفة شخصان فقط. يمكن أن يتعارف أصحاب الشقة معاً فيغلقون بابها ويعدون برنامجاً للشقة كاملة.. ويمكن أن يستقل كل اثنين منهم في غرفتهما ولا يتعارفون مع الجيران فيظل باب الشقة مفتوحاً دائماً وتشعر بالوحشة لو دخلتها. لم يراعوا في توزيع الشقة التخصصات.. ولا أدري أكان ذلك مناسباً أم لا.. في بعض الأحيان أشعر أن وجود اثنين من نفس التخصص في ذات الشقة يكون أنسب.. فهذا يعطي فرصة للنقاش وتنمية المعرفة.. والإعداد للدراسة.. ولكن أحياناً أشعر أن التنوع في التخصص يكون أنسب.. فهناك نجد تنوعاً في المعارف من خلال الأطروحات المتبادلة.

هناك مطعم خاص بالسكن.. وصالة توفر فيها كل ما يشغل الطلبة ويخفف عنهم وحشتهم.. وعادة نعني صالة ألعاب صغيرة وبعض الأجهزة الرياضية البسيطة. وهناك شبه حديقة يجلس فيها من أحب الهدوء والخضرة.. وبهذا حاولت

إدارة الجامعة أن توفر جواً ملائماً لكل الطلبة.. ووجود النادي الرياضي قريباً من السكن وفر على الجامعة وجود مدربين لبعض الألعاب الصعبة.. وأعطى الطلبة فرصة للالتحاق به دون أن تتأثر دراستهم.

- السلام عليكم يا سعد.. كيف حالك؟

- ابتسم سعد.. أهلاً عبد الرحمن.. بخير.. ويبدووا لي

أنك كذلك.

- نعم أنا بخير.. رأيتك تجري اليوم هل أنهيت استعدادك

للبطولة؟

- نوعاً ما.. يجب أن أحافظ على وزني لأتمكن من

اللعب في هذا الوزن.

- ابتسم عبد الرحمن.. أرى أن هناك هواية أخرى

تأخذك بعيداً عن جو النوادي.. وأشار إلى مجموعة الأوراق

بين يدي سعد.

- نعم صدقت.. منذ أن كنت صغيراً وأنا أحب الكتابة.

- ولكن لم أرَ أيّاً من إبداعك.

- محبة الشيء لا تعني الإبداع فيه.. أنا أكتب لنفسي.

- لا تحكم على نفسك.. يمكن أن تكون مبدعاً وتكتب

لنفسك.. وابتسم.. نوعاً من التواضع يعني.

- لا.. صدقني أنا أكتب لنفسي فقط.

- لماذا؟

- لا أدري.. لم أفكر من قبل.
- هل تسمح لي بالاطلاع على أوراقك؟
- ابتسم سعد.. ربما لاحقاً.. وابتسم.. إذا مت يمكنك الرجوع لأوراقي.
- ماذا سأجد فيها؟
- غاصت البسمة.. وظهر ألم في وجه سعد.. وران صمت طويل.

(2)

- عبد الرحمن.. لا تسلني هكذا.. سمحت لك بأوراقتي..
وقد عشنا معاً عدة سنوات ولولا أنني أعرفك ما قلت لك
هذا الكلام.

- جرحتك؟

- ربما ليس جرحاً.. ولكن..

- تهرب كثيراً من شيء يا سعد.. قل لي أنا زميل عمرك.

-

- جيد لا تقل شيئاً.. وأرني ابتسامتك.. وانشغل

الصديقان من جديد.

في حياة البعض نوع غريب من التناقض.. أو يبدو لنا
هكذا.. البسمة في وجه سعد، والحزن الذي يظهر بين فترة
وأخرى كسحابة مظلمة تغير الصفاء.. وطبيعة هذا الشاب
اللطيفة وبعده عن الناس، وهدوءه الغريب.. ونظرته القوية..
ترى أي سر في قلبه.

شاب بسيط في العشرينات.. عرف بين زملائه ببسمته..

واهتمامه بالأنشطة الطلابية.. وحبّه الفطريّ للدين وأهله.

استعد سعد للبطولة القادمة.. قضى فترات مثيرة وهو يتدرب.. وهو الآن مهياً للمنافسة.. شجعه رفاقؤه على الانتصار.. سيكون فخراً للكلية كلها.. وللسكن خاصة.

- اسمع يا سعد.

- نعم.

- لا أدري ماذا أقول لك.. ولكن هل أنت مصرّ على

السفر؟

- ابتسم سعد.. ما بك يا عبد الرحمن؟

- لا أدري.. ولكن لا أريدك أن تسافر.

- لماذا؟ تعودت كثيراً على السفر.

- أعلم ذلك.. ولكن هذه المرة أشعر بانقباض قلبي.

- سلامة قلبك.. وابتسم.

- أتدري يا سعد؟

- ما بك.. لماذا لم تكمل كلامك.

- أنا أحبك.

- وأنا أيضاً.. وربت على كتفه.. وموعدنا في الجنة.

قطع حديثهما صوت أحد الطلبة.. هيا يا بطل.. ستتحرك

السيارة إلى المطار.. انزل بسرعة. سحب سعد حقيبته وألقى

التحية على عبد الرحمن ثم جرى إلى الخارج.. ثم عاد

وعانق عبد الرحمن.. لا تنسني من دعواتك.

بقي عبد الرحمن ينتظر الأخبار من سعد.. وفي اليوم

التالي اتصل سعد يبشر عبد الرحمن بانتصاره في البطولة..
وسيعود بعد يومين.. شعر عبد الرحمن بنوع من الراحة.. وقام
يقلب نظره في الغرفة.. بدا له المكان موحشاً من غير سعد.
يا الله.. كيف يتغير كل شيء حولنا إذا بقينا لوحدنا.. ها
هنا كان يجلس.. وهنا يمد رجليه.. كم عاتبته على هذه
الحركة.. قلت له إنَّ الجدار سيتسخ ولكنه لا يلتفت إلي..
كان يجيب سأضع فوطه هنا وتنتهي المشكلة.. وهناك أوراقه
وأقلامه.. لو أن رجلاً أحب أولاده كما أحب سعد أوراقه
لكانوا أسعد أبناء.. ابتسم عبد الرحمن.. أوراقه هنا.. أقدر له
ثقتي، وسأكون أهلاً لها.. لن أقرأ شيئاً وانقبض صدره.. إلا
إذا رحل.

وهذا الشيء هنا.. سبيكة فضة نقش عليها أول حرف من
اسمه وبجانبه حرف الهاء.. ترى ما سر هذا الشيء.. لا يهم..
سأنتظر عودته.. اشتقت إليه كثيراً.. المكان موحش من دونه.
في اليوم التالي استيقظ عبد الرحمن على صوت الهاتف..
كان المتصل أحد الأشخاص من النشاط الرياضي.

- عبد الرحمن؟
- نعم من هناك.
- أنا المنسق الرياضي للفريق.
- ...
- لا أدري ماذا أقول لك.. ولكن..

- طار النوم من عين عبد الرحمن وقاطع الرجل.. ماذا؟
تكلم كيف حال سعد؟
- لا أدري حقيقة.. لقد أصيب في حادث.. وهو في حالة
خطرة في المستشفى.. فقط كان يردد كلمتين.. اسمك..
والأوراق.
لم ينتظر عبد الرحمن لينهي الرجل كلامه.. لقد مزق
الألم قلبه.. فلم يعد يشعر بشي حوله.. وفي المساء طار
الخبر في كل مكان.. أن سعداً لقي نحيبه متأثراً بجراحه.

(3)

هذه هي أوراقه.. أبناؤه.. كل حياته.. رفيق دربه.. وسمير
ليله.. كم كنت بعيداً في قربك.. قريباً في بعدك.. عانق عبد
الرحمن الأوراق.. كأنه كان يشعر بأنه سيرحل.. تركها كلها
لي.. وقصاصة صغيرة كتب فيها:

"أخي.. إنما أنا كاتب.. أسجل بالقلم مشاعر القلوب..
ربما ليس قلبي.. ولكن آلاف القلوب الحائرة.. لا تعجب من
كلامي ففي النهاية ستجدني قلباً ينبض.. ويحمل من المشاعر
الكثير".

ترى أي نبض هذا الذي أخفيته كل هذه السنين.. وببطء
بدأ يقرأ الأوراق.

"أعلم أن الكثير سيتعجب من مشاعري.. وأنا كذلك
أتعجب منها.. لم أشعر بشيء كهذا من قبل.. ترى أهو
الحب؟

أضحك كثيراً لهذه الفكرة.. لا أظن أن رجلاً مثلي يعرف
الحب أبداً.. الحب يحتاج قلباً رقيقاً ولكنني قاس نوعاً ما..
أو على الأقل سريع الغضب".

بل كنت أرقّ قلب عرفته يا سعد.. ولكن قسوتك كانت
على نفسك فقط.. وغضبك كان في الحق.. وكل من عرفك
يعلم هذا عنك.

عاد للقراءة ثانية "هل سيصدقني أحد إذا قلت له إنها
أظهر وأرق فتاة عرفتها الدنيا.. سيقول لي البعض هذه أحلام
عاشق ولتكن كذلك لا بأس يكفي أنني أراها بهذه الصورة..
ستصبح بإذن الله شريكة حياتي.. ولا يهمني أن يراها
الآخرون بهذه النظرة.. في الحقيقة أغار عليها كثيراً.. أحياناً
نرحل في سماء من نحب، ونظل نحلق فلا تتعب أجنحتنا..
ولا نشتاق للأرض.. ولكن هل سنموت في النهاية؟

هل تعلم بحبي لها.. وهل ستحبني يوماً كما أحببتها..
ربما، ولكن إذا لم يكن لي نصيب فيها فأنا أرجو أن
يجمعني الله بها في الجنة.. هناك بعيداً عن هموم الدنيا".
آه يا سعد.. هذا سرّك إذاً.. حب مكتوم في صدرك..
تأبى عليك رجولتك الخيانة والعبث.. ويأبى واقعك من
اللقاء.. أهو كذلك؟

"أتمنى لو حادثتها ساعة.. سترفض أعلم ذلك.. وسأرفض
لأنها رمز الطهارة.. ليست مثلي.. يكفي أنني عرفت طريق
الخير منذ أن أحببتها.. يظن البعض أن وقوعي في الحب شيئاً
غير طبيعي.. لماذا؟

أليس لي قلب؟؟ ألا أشعر بالصفاء فيها؟؟ آه لو تدري

كم أحبها " .

ليت كل الرجال مثلك يا سعد.. قلب لا يعرف الشك..
ويُدّ تمتد لعدوها بالورود فماذا ستعطي الصديق.. أكمل يا
رفيق العمر.. فما زلت أتابع معك.

" زميلي في الغرفة.. شاب طيب من أسرة صالحة..
أحبه، ولكن ماذا سيقول لو علم أنني أحب فتاة.. أحب أن
يعلم.. ولكن أريده أن يعلم أيضاً أنني لم أفكر في أمر مشين
أبداً.. ولم أقدم على خطوة لا تليق.. هي جوهرة أصونها
وأحفظها في عيني.. ولكن ربما من الأفضل ألا يعلم بشيء..
قد أخسره ويظن بي السوء " .

بك أنت؟!!!.. عجب أنت يا سعد.. وهل عرفت أنقى من
نفسك؟ كنت ألجأ إليك إذا اشتدت بي الدنيا وضائق السبل
لأجد قلباً شامخاً ثابتاً لا تهزه الأحداث.. ولا يضطرب..
أتراني كنت قاسياً معك؟ سامحني يا أخي.. سامحني.. كم
نشعر بالندم إذا فارقنا من نحب.. ونعلم مدى تقصيرنا في
حقهم.

" ترافقني في الليل بسمة ودمعة.. بسمة لذكراها.. أراها
في عباؤها محتشمة خافضة رأسها في حياء.. ودمعة شوق
لها.. كم أتمنى أن تكون زوجة لي.. ولكن آه من الأعراف..
لا بد أن تنهي دراستك وأن تجد لك وظيفة مناسبة ويكون
دخلك مرتفعاً.. وعندما ألتفت حولي سأجد أنها قد طارت..

ربما من الأنسب أن أتمنى لقاءها في الجنة".
ها هي الأعراف ثانية يا سعد.. تفرق بين قلبين.. وكل
أسرة تشكو.. وعيون كثيرة لا تنام.
"هل يمكن أن أخبر أختي لتخطبها لي.. لا، حتى أختي
قالت: انتظر لتنتهي دراستك.. وربما لتنتهي هي دراستها.. جيد
لا بأس.. فقط خطبة حتى لا يسبقني أحد إليها".
وماذا بعد يا سعد.. إلى متى هذه المعاناة؟

(4)

"أتعجب من شيئين في الحب:

الشك.. والضرب.. هل يعقل لمن أحب أن يشك في محبوبته؟.. ثم إذا جمع الله بينهما هل يعقل أن تمتد يده لضربها.. أعلم أنهما بشر.. ولكنهما ليسا كالبشر.. إذا شك فيها فلماذا ارتبطا منذ البداية.. ولماذا حرص على ذلك.. لكن من أهوى ليست كالأخرين.. وأنا لست كذلك".
نعم يا سعد.. هذا هو.. أنت لست كالأخرين.. لأن قلبك صاف لم تعرف الفساد يوماً.. ويوم أن تضعف فإنك تعود أقوى وأنقى.

"هل مر على العالم محب مثلي.. أو حبيبة مثلها.. أكتفي منها بالطيف في ذاكرتي.. أقرب منه ثم لا ألمسه لكي لا أدنسه بشهوة.. ولو عرفتني لأكتفت مني بأقل من ذلك.. لأنها أطهر مني وأنقى.. يكفي أنني عرفت طريقي من خلالها.. رأيتها في حجابها وعفافها.. فعلمت أن قلباً كهذا لا بد وأن يكون مصيباً.. وسلكت طريق ربي آملاً أن يجمعنا".
ابتسم عبد الرحمن.. سبحان الله يا سعد.. عرفتك تنظر

لكل شي نظرة تختلف عن نظراتنا.. ومن كان يصدق أن
الحب سيقربك من الخير وقد أبعد غيرك.. ولكن أتدري يا
رفيقي.. البعد والقرب من الخير ليس إلا نظرة في داخلنا..
وتنعكس على أفعالنا.. وقد كنت أنت قريباً من الخير وتریده..
لذا رأيت كل شي يقربك منه.

"هذه قصاصات قلب متعب.. يرحل في عالم الأحياء
والأموات.. أحياء الأجساد وأموات الروح.. لن يراها أحد..
لأنهم لو رأوها لاتهموني.. ولست في حاجة لاتهامات.. لو
كتب الله لي الحياة فسأسعى إليها.. ولو مت فموعدنا هناك
عند الله بإذن الله.. ولكن يكفي أن أحمل لها في قلبي صدق
المحبة.. حباً لم يعرفه البشر.. وفي صدري أبذر الحب ليثمر
خيراً وعطاءً.. ثم أموت دون أن ألوثه ولو بكلمة.. لست
عاشقاً ماجناً.. بل محباً صادقاً.. يرسل مع الليل أشواقه عله
يقابل ليلاً فيصلها شيئاً من نفحاته.. وفي كل سجدة يرجو
لقاءً بها".

توقف عبد الرحمن عن القراءة.. وسالت دمعة على خده
لم يكلف نفسه عناء مسحها.. ربما شعر بأن هذه الدمعة هي
أقل ثمن يقدمه لقاء مودة صديق عرفه وعرف معه الصدق.. ها
قد رحلت يا سعد.. وسرك الذي بقي في صدرك مسطر هنا
في الأوراق.. أترى هل يمكن أن تكون هناك قلوب كقلبك؟..
وحب طاهر عفيف لم يعرف الأذى كحبك؟.. هي من تكون؟

هي في نظرك السماء ونجومها.. والأرض وأنها.. هي
الصفاء والعتاء.. ترشد للخير وتروي أشجاره.. وأنت!!.. من
أنت؟ أنت راحل غريب لم تعرف في الدنيا القرار.. تضحك
وتخفي في صدرك نيراناً مجاهدة.

نظر إلى الأوراق في يده.. وقام بهدوء إلى آلة قص
الأوراق وبدأ يقطعها قطعاً صغيرة.. أعلم أن هذه رغبتك.. لن
يراها أحد فلن يفهم العالم معنى أن يكون شاباً يحب في
عفة.. ويموت وفي صدره هذا الحب.. ولن يفهم العالم أن
حباً يقرب من الله.. وأن قلباً يشواق ويحتسب الشوق.

أنت يا هذا عظيم.. يكفيك من حبك الصدق والوفاء..
ويكفي قلباً أحبك أن تسعى إلى اللقاء.. ربما ليس في عالمنا
الصغير.. وما كنت تعنيه.. ولكن في جنة عريضة.. هناك حيث
لا فراق.. نعم لن يفهمك الكثير.. ليس لأن بك خلاً.. ولكن
لأنهم لم يعرفوا هذا الصفاء أبداً.. ولم يدركوا تعلق الأرواح
بالأرواح.. المادة الآن تسير حياتهم فأنى لهم أن يرتقوا إلى
روحانيتك.

الآن فقط علمت سر النظرة الساهمة.. وسر البسمة
الغامضة.. كانت الذكريات.. ما أقسى ما نحمله في صدورنا
ولا نبوح به.. وما عسانا نقول إذا تكلمنا؟.. وهل سيفهمنا
أحد فنبوح له.. أم أننا نحيا في عالمنا فقط.. هذه يا سعد
ليست سوى رؤى.. وأنت اخترت لنفسك الطريق ورضيت به..

حملت ألمك في صمت ورحلت.. ولم يطل بك المشوار.. ها
قد رحلت الآن وكل الذي تنتظره أن يلحق بك من أحببت.
لقد انتهيت من إتلاف أوراقك.. ولكن بقي كل حرف
سطرته في ذاكرتي.. وبقيت كلمة حوت كل ما كتبت.. أن قلباً
أحب في صدق.. وصمت في عفة.. وطلب موعداً باللقاء في
الجنة.. ورحل في صمت.. ولم تبق منه حتى الذكريات.. وأن
نفساً طاهرة فاضت في سكون.. ورضيت من عالمها بفكرة..
وطلبت من الله أنساً ورفقة.

هذه أيامنا تطوى.. ولكن لن يكون لنا منها حبٌ كحبك..
ولا قلب كقلبك.. ونظل نرجو ما كنت ترجو.. قلباً صادقاً
يهبنا الحب والحياة.. رحلت يا رفيق دربي.. وربما رحل معك
من تحب.. وسأبقى دائماً أتذكر الموعد هناك بإذن الله.

فاصل

الخيطة..

كان ضجيج الآلات يصم الأذان.. والوجوه التي تحولت إلى قطع من الخشب تنظر إلى مكان واحد دون أن تتغير ملامحها.. الحاجب المعقود.. والعضلات المشدودة.. ولمحة تعب ممتزجة بألم تظهر بين فترة وأخرى.. وفي الزاوية البعيدة وقفت المراقبة ماجدة ذات الوجه الصارم والخمسين خريفاً تراقب البنات وهن يعملن على مئات الآلات.

كان المصنع قديماً بنته الحكومة لأعمال الحديد، ومع الحرب وتغير الحياة قلت الأعمال التي يقوم بها المصنع، وتحول جزء منه إلى استثمار، وفيه أقيمت مصانع الخياطة هذه، موفرة بذلك فرصة عمل للقرويين الذين يريدون أن يحيوا حياة أقرب إلى حياة البشر.. ولكن لم تكن توفر لهم غرفاً للسكن ولذلك كان بعضهم يضطر إلى استئجار غرفة في منزل قريب إن وجد، أو يرضى بأي منزل ويتحمل في سبيل ذلك المطر والثلوج في ليالي الشتاء.

لقد عرفت ماجدة بشدتها بين العائلات، ولذلك أوكلت إليها إدارة المصنع المراقبة، وبالفعل نجحت في بث جو من

الرعب بين الفتيات حتى عرفت بقسوتها.. لم تكن ماجدة تعرف من الدنيا إلا معاني القسوة والتوفير.. وبدا هذا النهج واضحاً حتى في مشاعرها الجافة وملامحها القاسية.

كان من ضمن العاملات فتاة في الثانية والعشرين من العمر عرفت معنى الشقاء في سن مبكرة.. وجاءت إلى المصنع كغيرها من الفتيات، ولكنها زادت عليهم بشيماء الطفلة ذات الربيعين. ورأت أن تستقر في هذه المنطقة البعيدة بمصنعها الصخري الصاخب، علّها تجد في أحجاره بعضاً من العطف الذي فقدته في حياتها. وألفت عين ماء قريبة من الغرفة التي استأجرتها، ومجموعة من الطيور الصغيرة تقف قريباً منها تلتقط الفتات الذي تلقيه حنان لهم كل صباح قبل أن تذهب إلى عملها.

بدأ فصل الصيف بطول نهاره وشدة حره.. وكانت حنان قد أنست لزميلة لها تعيش ظروفًا مقاربة لظروفها إلا أن لها أسرة تذكرها بين فترة وفترة بزيارة، ومع قلة هذه الزيارات وسرعة انقضائها إلا أنها تشعرها بقرب أسرتها.. أو على الأقل هي تلك الرغبة التي تشعرنا بالأنس في وجود أسرتنا ومن نحب من حولنا.

من الذي يستحق البكاء؟.. أصحاب القلوب القاسية والمشاعر الجافة، أم هؤلاء البسطاء في أسماهم النظيفة، يبتغون شظفاً من العيش يقيم أودهم، مع بقاء نقاء قلوبهم

وصفاء أرواحهم؟

كثيرة هي المعاني التي انتكست في حياتنا.. وتغيرت فلم نعد نميز.. نظن أننا نقيم واقعنا بمنطق وعقل، ولا ندري أن أعرافنا من صنع أيدينا.. وأن مبادئنا شيء لم يكن موجوداً إلا يوم بدأنا في التفكير.. صورة حنان وهي تلاعب شيماء تجعل كل قلب ينبض يفكر في جذور هذه الأسرة، من أين جاءوا.. وأين البقية.. وإلى أين ستنتهي بهم الحياة في عالم قاس لا يعرف من الرحمة إلا اسماً يرتبط بالمناسبات.

بجوار المصنع كان منزل سعد.. هو من أهل القرية.. عاش شبه يتيم إلى فترة متقدمة من سن طفولته.. ثم تيم بعد ذلك ليكمل المشوار مع أم لم تلبث أن تلحق بزوجها فجأة تاركة وحدها يقاسي الألم دون أن يعي معنى الرحيل. وفي أيام قلائل كان أعمامه قد تقاسموا كل شيء وتركوا له منزلاً في حدود القرية كان أبوه قد جعله لعابري السبيل ثم أهمل بعد وفاته.

أصلح سعد ما استطاع من شأن المنزل.. وحاول الاعتناء بالحديقة قدر استطاعته، ثم تمكن من الحصول على عمل يدر عليه دخلاً قليلاً.. ومنه اشترى بعض الغنيمات ينتفع بهن وهكذا بدأت حياته تترتب. ولكن بقي الحنين للأسرة يشغل ذهنه.. ونظراً لفقره لم يفكر بالتقدم لأي فتاة من القرية.. ولكن إلحاح الفطرة في نفسه الغضة أوحى إليه بالتقدم لأي

من عاملات المصنع، ولسيرة حنان الطيبة عزم على خطبتها. أرسل سعد لجارته أم محمد وهي امرأة كبيرة جاورت أسرته زمناً طويلاً ولعب أبنائها مع أبيه وأحفادها معه.. يخبرها عن رغبته في الزواج من حنان.. وكانت أم محمد ترى نفسها في مقام الأم والجدة لسعد فرحبت بذلك الأمر كثيراً.. ولكنها تذكرت شيماء فأثار هذا الأمر نظرات إلى الماضي، وحاولت أن تبحث عن حنان في أستاها أكثر عليها تعرف تاريخها.. وبالفعل علمت بأنها يتيمة زوجها عمها من رجل ثري طمعاً في المال وكانت شيماء ثمرة ذلك الزواج.. ولكن الضرب والاحتقار أنهى العلاقة الزوجية حتى قبل أن تأتي شيماء.. ولم يقبلها عمها بعد ذلك في بيته فاضطرت إلى الرحيل من أجل العيش في كرامة.. وكان استقرارها هنا في هذه البلاد.

ولم تضع وقتاً ففاتها تحتها في الأمر وترددت حنان في البداية.. ولكن الرغبة في الاستقرار والشعور بالحاجة إلى الرجل دفعتها إلى الموافقة آملّة أن تجد في سعد ما يعوضها عن الشقاء الذي رآته في حياتها.

تم عقد القران.. واتفق الجميع أن يكون الزواج بعد شهرين ريثما يتم للجميع الاستعداد وبدأت نسمات من السعادة تملأ حياة قلبين.. وانشغل الزوجان في الترتيب لليوم المنتظر.

في المصنع كانت ماجدة ترى وتسمع وتشعر بالغيرة تأكل قلبها.. كيف أن هذه الغريبة توفق للزواج قبلها وهي التي لم تتم السنة في هذه المنطقة.. وكانت تنسج في الخفاء خيوط حقدتها عليها تصيب بعضاً مما أصابت حنان.. أو تمنع عنها السعادة المرتقبة. فأوصلت إلى الإدارة مكيدة مفادها أن قصة حب كانت قد تمت بين الزوجين قبل عقد القران.. وهذا من شأنه أن يسبب سمعة سيئة للمصنع وعاملاته.. وبالفعل اتخذت الإدارة إجراءاتها وقامت ودون تثبت بفصل حنان من عملها.

انقضى الشهر الأول وفيه من التعب ما فيه.. وبدأ العد التنازلي للقاء.. مر أسبوع وأسبوع.. واضطر سعد للذهاب إلى المدينة لإحضار بعض الأشياء الضرورية للمنزل.. هياً غرفته الصغيرة.. حاولت حنان أن تثنيه عن الذهاب لأنها كانت قلقة عليه.. ولكنه أصر وطمأنها.

ليل رواق على القلوب نشعر به.. يبسط نفسه فيورث أنساً وسكينة.. وهذه البقعة من الأرض تحكي أن أرواحاً طاهرة سارت عليها.. مر على قصتنا هذه خمس عشرة سنة.. لم يعد سعد، فقد رحل للقضاء.. عاشت حنان وابنتها هنا.. وفي المنزل القديم استقرت هذه الأسرة الطيبة.. ومن الأرض والغنيمات انتعشت أرواح.. وافتقدت الحب من البشر، لتجده في النجوم والسماء والأشجار.

فاصل

الشيوعي..

لم أفاجأ في حياتي بشيء بقدر ما تفاجأت بهذا الرجل الذي يصفه الناس بأنه شيوعي.. ولا أستطيع حتى الآن أن أصنفه.. ولم تفلح السنوات الثلاث في تحديد هويته بالرغم من وضوحه في كثير في الأمور حتى كانت ليلة رمضان جمعتني به وكسرت بعض الحواجز.. وأيضاً تركت مزيداً من الحيرة.. بدأت القصة حين عدت من صلاة التراويح.. مسجد القرية يظل في النهاية مسجد قرية.. فكل شيء هناك مألوف ولولا موقعه المطل على النهر من جهة وعلى الغابة من جهة أخرى ما عرفه أي عابر من هذه المنطقة.. وكان جاري سعيد يقف على باب بيته وفي يده مجرفة، بدا لي أنه كان يستخدمها في تثبيت شتلة ورد أمام الباب، وحين رأني ابتسم كعادته واقترب من السور الذي يفصل بين منزله والشارع ومد إليّ كفه مصافحاً.

- مرحباً.

- أهلاً أستاذ سعيد.

- هل ترغب في تناول كوب من القهوة معي؟.. أنا عازب هذه الأيام.. ابتسم في غموض ثم أضاف.. ولا شيء أسوأ من حياة شيخ عازب.

شعرت بالشفقة عليه.. ورحبت بالفكرة وقلت في نفسي عليها تكون فرصة لمعرفته أكثر.. فوافقت ودخلت معه إلى بيته.. ولا أزعج أن منزله يشبه مساكن الشيوعيين في زهدهم.. فهو مرتب بأناقة وذوق.. وكان لوجود مكتبة في زاوية الصلاة إحياء يدل على ثقافة أهل المنزل.

وكالعادة في مثل هذه المواقف كان الحديث يدور حول الطقس والمحاصيل وأنباء القرية وحال أبنائها والمركز الصحي الجديد والمدرسة الكبيرة والمناهج الأوروبية.. وكنت طوال الكلام أحاول الربط بين المواضيع لشعوري أنه يقصد شيئاً من وراء هذا الحديث.. وفجأة ران صمت طويل وبقيت عيناه تراقبني وشعرت أنني أتعرى أمام هذا الشيخ الغامض.. حاولت تجنب نظراته أو طرح أسئلة عليه عله ينصرف عن مراقبتي.. وهو يرد عليّ بإجابات مقتضبة ولا يزيد على ابتسامته الغامضة.. وفجأة قطع الحديث ووجه سؤالاً نزل عليّ كالصاعقة.

- أنت تحاول تصنيفي.. أليس كذلك؟
.... حاولت أن أنكر.. ولكنه قاطعني.

- لا يحتاج أن تنكر.. أنا لا ألومك بل أنت يا بني تفكر أكثر من كل الذين قابلتهم في حياتي.
- الحقيقة ليس تصنيفاً بقدر ما هو للتعرف على جاري بشكل أدق.

- وماذا تريد أن تعرف يا بني؟
شعرت أن كل الكلام الذي كان في صدري قد اختفى.. ولم يبق سوى صمت وحبات عرق تنزل لتتجمع على أرنبة أنفي.. وشعور بالخزي يعتريني.

- اسمع يا أمجد.. في يوم من الأيام كانت بلادنا في يد المسلمين.. كانت تحكمها الخلافة.. ومع أن الخلافة في ذلك العصر لم تخل من سلبات.. أو هكذا صور لنا.. إلا أنها في النهاية كانت قوة وعزة للمسلمين.. كنت وقتها شاباً مراهقاً أدركني ما يدرك أقراني من النقص وغلبة الشهوة وقلة البصيرة.. فعشت أتمتع بشبابي وأغرق في ملذاتي دون مراعاة لقومي وعوراتهم.. حتى سقطت الخلافة وتسلم علينا الشيوعيون.. وعندها استيقظت ولكن كان كل شيء قد تنكر لنا وبتنا في أسوأ حال.

ويشعور الشاب الغيور الأبوي المحب للحرية رأيت أنه مازالت الفرصة سانحة لعمل شيء للإسلام.. فبدأت أطرق كل باب بقي ممن أعرف أنهم مسلمون فما وجدت باباً يقبل مني

مساهمة في عمل خير.. وهكذا أصبحت أمشي طوال اليوم
فلا أجد مسلماً يمد يده إلي لنقوم بشي لأمتنا، وغاص
البعض ممن كان يشار إليهم بالبنان في حمأة السياسة
والتجارة.. فكرهت قومي وكرهت الناس وبدأت أبتعد عن
الجميع.

كان العم سعيد يتكلم كأنه يقص علي قصة خيالية..
وجدتني أرحل معه في قصته ومع كل حرف كانت نبرة ألم
تنطق في ملامح الشيخ وشفته المرتعشتين.

وعاد يتابع قصته.. في تلك الأيام بدأ الشيوعيون ينادون
بشعارات خدع بها الكثير.. وكنت يومها أجلس في حانة
اعتدت الجلوس فيها أيام اللهو.. فوقف أحد أصدقائي
القدامى ممجداً الإلحاد فغضبت منه ورددت عليه.. كان عملي
هذا مخاطرة.. فأني معارضة تعني القتل.. ولا أدري ما الذي
دفعني للكلام.. أهو تمنى الموت بسبب ما لاقيته أم غير
ذلك؟.. المهم أنني رددت عليه فصاح رجل من آخر الحانة..
- اسمعوا.. الواعظ السكير..

وتعالق فقهقات من كل الأركان.. وانهالت الألفاظ
الساخرة علي.. وأنا أحبس غيظي.. وفجأة قطع الضحك
صوت هادئ يموت الرجال من الرعب عند سماعه.. ذلك هو
عريف الشيوعيين في قرיתי.

- لماذا تضحكون؟
انسحب الرجال.. وبقيت في مكاني لم أتحرك منه..
فاقترب مني
- .. سعيد.. مابك يا سعيد..؟
- وارتسمت على شفثيه ابتسامة مأكرة.. ولكنني في تلك
الساعة لم أكن لأبالي بشيء.
- يسبّ ديني.
- وهل بقي دين يا سعيد؟
- ...
- أنت ذكي.. وأحسب أنك ستكون مفيداً لنا.. لقد
أضاعك قومك يا فتى..
ثم شدني من ثيابي وقال لي: أتظن أنني لا أعلم
بنشاطك؟
ثم ابتسم في مكر وأضاف..
- ولكنني أعلم أن قومك لن يستجيبوا.. فكر قليلاً..
وتعال معنا فالحرية تحت الألوية الحمراء.
كان ذلك هو بدايتي مع الشيوعية.. وسرعان ما ترقيت في
مناصبها وساعدني بلادة القوم وغوغائيتهم.. وبدأ الكل يخاف
مني ومع ذلك فقد كنت أنكر في نفسي بعض مبادئ.. ولكنني
بقيت آخذ من كل الأفكار.

تنهد الشيخ بعمق كأنه يريد أن يلقي بقية القصة من صدره.. وكأنه حملاً ثقيلاً على قلبه كل هذه السنين.. وارتعشت شفته في حركة أعرف فيها معنى الألم وحبس الدمع.

كنت أثناء عملي في الحزب أتابع الروح الإسلامية في صدور أبناء شعبي فهالني أنني لم أر نبضة تبشر بميلاد.. وهالني أكثر أن أهل العلم انقسموا قسمين.. الأول قتله الإلحاد وكانوا هم الأمل الحقيقي.. أما الثاني فكان أقل من الموظفين في وزارته يمجدونه أكثر من تمجيده لنفسه.. وكلما صاح صوت باسم الإسلام أسكتوه ووقفوا ضده.. فجهزت أمري وقررت الاعتزال.

لم أتمالك نفسي.. وسقطت دمعة على خدي سارعت لأمسحها بيدي.. وتراقصت على نسمة الريح شمعة في زاوية المطبخ فألقت بظلالها على وجه العجوز.

- وهكذا يا بني بقيت كما ترى.. أعطي للناس ابتسامتي بعد أن أعطوني المرارة.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- عاد الإسلام.. ولكن في صورة ياباها الإسلام.. مسخ من الأفكار والمعتقدات.. وغاب الرجال الأحرار.
- وأنت؟

- أنا في قريتي كما رأيتني..
ومد يده بكوب آخر من القهوة.. شكرته.. كنت أريد أن
أسمع البقية.. ولكن ظلال الصمت عادت من جديد.
تركته وعدت إلى غرفتي.. ألقيت كتبي على الأرض..
وأخذت أبكي..

- أين الإسلام.. لماذا حدث كل ذلك مع العجوز؟
كانت الأسئلة تقفز إلى ذهني سريعة لتتحطم على صخور
اليأس.. وفي ظلمة الليل امتدت يد الظلام لتطفئ شمعة النور.

فاصل

أشواق وأشواق..

سبحان الله..
حتى الطيور تحن..
تذوب أجنحتها شوقاً..
تألم..
تتعذب..
ومن أجل الوصول لمن تحب..
ترفرف نحو الآفاق..

(1)

المساحات الخضراء ممتدة.. السهول واسعة تدعو كل
متأمل ناشد للسكينة.. الألوان مختلطة.. يمتزج فيها الأخضر
بالأحمر.. يعانق الأصفر الأبيض.. تحدها الأشجار.. ونهر
جارٍ يتفرع منه أكثر من جدول.. خريف الماء يكمل قطعة من
التسييح رائعة.. وأصوات الطيور تجاوب همسات الرياح..
هذه الأرض سلمت من يد البشر.. هنا حيث لا ضغينة
ولا حرمان.. لا حسد ولا هموم.. تشرق شمس الصباح ناشرة
مع إشراقتها الدفء والحياة. ويظهر القمر كل ليلة ليكسو كل
ورقة أثوابه الفضية.. تهب الأشجار الأوكار والأعشاش
للطيور.. ويحنو الزهر على النحل معطياً إياه الرحيق.. وينقل
النحل الرسائل بين زهرة وزهرة ليستمر البقاء.. كل شيء هنا
يقدم للآخر.. يعمل من أجله.. وحين يأتي موسم الرحيل
تهاجر الطيور تاركة كل شيء.. لكنها تعود لتتزوج من جديد.
- من أنت؟ قالت الزنبقة..
- يسمونني الحنون.. وابتسم لها.. أنا من طيور الجبال.
- قالت بتعجب.. أووه أحقاً!! سمعت أن الحياة عندهم

مخيفة.

- رد مبتسماً.. نعم مخيفة بقدر السعادة.. متعبة بقدر الراحة.. إن تعبنا في حياتنا هو سر بقائنا.
- نظر الطائر إلى الأفق.. وبدأ يتمتم.. إن قلباً عرف الفضاء.. لن يرضى بالأرض.. ونفساً تعلق بالذرى لن تقبل بالسفوح.
- قطعت الزنبقة حبل أفكاره.. وقالت وكيف أتيت هنا؟
- كنت في رحلتي.. وقادني إلى هذا المكان الهدوء وتناسق الأشياء.
- نعم.. مكان جميل.. ويبدو كل شيء متناسقاً.
- قالت الزنبقة.. نعم.. ولكن....
- تفرس فيها الطائر.. ولكن ماذا؟ كأنك تفكرين في أمر.
- نعم.. الكل هنا متناغم.. ولكنني أشعر بغربة بينهم..
- كيف؟
- لا أزال صغيرة.. لم أتكيف بعد مع دورة الحياة.
- ابتسم لها الطائر.. ولكنك ذكية.. وأرى أنك تحملين قلباً طاهراً.. أبيض كالثلج.
- ابتسمت.. يشبه ريشك الجميل.
- بدت الزنبقة متعجبة جداً من الحنون.. تخيلته عملاقاً وبدأت تنسج له من خيالها الصور.. تتخيله في القمم.. يزاحم الهواء.. أجنحته القوية تمكنه من الطيران بقوة.. ونظرته

الباسمة تسحر الفضاء..

- هل ستطول إقامتك هنا؟
- لا أدري... ولكن على أي حال لا بد أن أرحل ذات يوم.

- لماذا؟

- ابتسم لها.. لأن مكاني في القمم.. هناك تكتمل دورتي في الحياة.

لم تعرف الزنبقة أن الحنون كان حزيناً.. كان يبحث عن أرض يحلق فيها.. هذه الساحات لاتستهويه.. إنها تصلح فقط للراحة والاستجمام.. ولكن عليه أن يقدم الكثير.

- كيف تحب أن أناديك؟
- ابتسم الطائر.. ما رأيك أنت؟
- أممم.. أنت أبيض.. وقوي.. وجميل.. أناديك.. ملكي.
- ابتسم لها الطائر.. وأنت كيف أناديك؟
- اختر لي أنت.
- حسناً أناديك.. ابنتي.
- فرحت الزنبقة.. ابتسمت ولكنها سرعان ما طأطأت رأسها.. وذبلت.

- ما بك.. لم الحزن؟
- أبي سيرحل ويتركني.. سأبقى وحيدة بعدك.
- ابتسم لها.. أنت لست وحيدة.. أنظري حولك. كل هذه

المروج قريبة منك.

لم ترد الزنبقة.. لكن قطرات الندى كانت تعبر.

- اسمعي يا ابنتي.. أتشعرين بالوحدة وأنت بين الزنابق؟

-

شعر الحنون بقلبه يتفجر.. لم تكن الزنبقة تدرك أنها
بدمعتها تلك غرست في قلبه خناجرَ وسقته سموماً.. كان
غريباً مثلها.. رحل ليبحث عن وطنه.. أشاح بوجهه عنها..
ودون أن تشعر سقطت على خده دمعة.. أقوى القلوب هي
تلك التي تذرف الدمع في صمت.. تحترق فيها آلاف
الآهات.. تريد الخروج فلا تجد إلا الصمت.. فتتعذب
الأرواح.. وفي عزة وعناد يبتسم أصحابها.

في قاموس الحياة لا توجد قلوب سعيدة بالكامل.. ففي
كل قلب مرارة.. من سلم من مرارة الحرمان لم يسلم من
مرارة الشوق.. ومن ابتسم لإشراقه بكى لظلمة.. ومن كان
محللاً اشتاق للاستقرار.. ومن استقر حنّ للرحيل..

كل ما ترى حولك هو قلبي وقلبك.. هو أنا وأنت.. هو
ابتسامة الطفل تعانق صرخة الوليد.. وفرحة الولادة تصاحب
آلام المخاض.. والحزن على الرحيل يقابل لذة السفر..
والبكاء على الماضي يبشر بالمستقبل..

- بُنيّتي..

رفعت الزنبقة رأسها على صوته الرقيق.. كانت تفكر فيه..

بدا لها عظيماً.. شعرت بأنس لقربه منها. تمنى أن يفرد
أجنحته ليحتويها.. ليضمها ويحميها.

- ابتسم الطائر.. أشعرين بالسعادة لو زرتك؟

- أشرفت أوراقها بابتسامتها.. بالتأكيد يا ذاتي.

- إذا ابتسمي.. فسأكون قريباً منك.

الفرق بين الدمعة والبسمة هو وصول خبر.. كلمة واحدة
ينقلها بشير تطير قلباً فرحاً بها.. وقد تكون الكلمة مفتاحاً
للشقاء.. إن الأحداث تجري لتغير المشاعر.. لماذا لانرى
النور في الأحداث إلا بالتعب.. ويمكننا أن نبصر الحزن في
كل همسة وحركة.. لماذا تتغير مشاعرنا من أجل كلمة ربما
كانت من غريب لا نعرفه؟ لماذا تتعلق قلوبنا وتشتاق؟ لماذا
نشعر بتغير الدنيا من حولنا من أجل قلب؟

شمس اليوم هي شمس الأمس.. لماذا نشعر أن كل شيء
حولنا قد يتغير إذا تغيرت مشاعرنا.. النور يظلم.. السماء
تسقط.. الماء يجف.. الدنيا تقسو.. وتبقى قلوبنا غريبة تتأثر
بكل همسة ونسمة.

(2)

مرت الأيام كأهدأ ما تكون.. والأيام كالبحر تمر عليها
فترات هدوء وسكينة فننعم بخيراتها.. نستمتع بكل لحظة فيها..
ونعيش في أحضان أمواجها تارة.. وتارة على شواطئها.. وبين
خيرها وشرها نتقلب. ثم تتغير الأيام فتكون كأموج هادرة..
تعلو فلا تعرف معنى للرحمة.. تلك الأمواج التي حملتنا في
يوم من الأيام قد تكون هي عين الأمواج التي تغرقنا.. والقاع
الذي يحوي الدر هو ذاته الذي يحتضن الموت.. والشاطئ
الآمن الذي نأوي إليه.. يمسي صخوراً تكسر ألواحنا..
حدثته الزنبقة عن نفسها كثيراً.. وحدثها عن نفسه.. حدثته
عن بذرة طيبة ألقيت في الأرض.. فأنبتت زهرة خير تكاثرت
ونفعت.. ربما حمل البذرة طائر مثله.. حدثته عن أحلامها..
أمانيتها.. أفكارها.. عن كل شيء في حياتها.. كيف حوى
الغصن الرقيق كل هذا؟ بدت له كنسمة خير.. كصورة ملاك..
كزهرة من الجنة.. تأملها كثيراً.. كانت تحيا في عالم آخر..
بدا لها طائرها الدنيا كلها.. ورأت فيه كل الصور والأمنيات..

حدثها عن السهل والجبل.. عن الصحراء والمروج.. نقل إليها صوراً من العالم لم تكن تتوقعها.. حملها إلى قمم الجبال.. وعبر بها ساحات الأودية.. كانت رفيقة دربه في رحلاته.. تفرح إذا ذكر موقفاً يفرحه.. وتبكي وتتألم لو شعرت بتعبه.. لم تكن الزنبقة سوى طفلة مدللة لطائر محلق.. في صورة غريبة من صور الألفة.. جمعت بين طائر وزنبقة.

أشرقت الشمس.. واستيقظت الزنبقة.. فتحت براعمها لتستقبل يومها وقلبها.. مؤملة أن يأتي مبكراً هذا الصباح فقد آنتت من نفسها رغبة في الحديث معه.. تحس بقلق غريب يساورها.. ترى هل سيأتي؟ لماذا تسأل نفسها هذا السؤال.. إنه يأتي دائماً.. ما سرّ توجّسها في هذا اليوم؟ ما الذي تغير عليها؟

نظرت الزنبقة إلى الأفق وسرحت بفكرها بعيداً تنتظر مجيئه.. وبقيت ساهمة حتى المساء.

الطائر ذو الريش الأبيض.. لم يكن بعيداً عنها بقلبه.. كان يفكر فيها كثيراً.. يحلق بجسده.. وروحه تسابق تحليقه.. وقلبه مع زنبقته.. الهواء يقاوم أجنحته.. كأنه يريد أن يثنيه عن التحليق.. وقبل لحظات كان يقاوم ساق الزنبقة لتثني.

ما الذي جعل الحنون يقسو ويغادر الزنبقة دون أن يخبرها عن وجهته.. إنها ليست القسوة.. بل الفرق بين طبيعة

الطائر والزنبقة.. الرغبة في التحليق، والوصول إلى القمم
العالية رغبة تصارع نفس الطائر، بينما كانت التربة الجيدة
والمناخ الملائم كافيين لاستقرار الزنبقة.

هل نختار في حياتنا ما يوافق طبيعتنا؟.. أم نظل كطائر
وزنبقة نظن أننا متفوقون بينما نحن نحلق في عالم الوهم..
يدور في مرج الزنابق همس عن الزنبقة الصغيرة.. الأقران
يتعجبون ومن الغيرة يتكلمون.. يقضون الليل على ضفاف
الجدول يتسامرون.. يروون حلم الزنبقة وقصة الانتظار..
وينسجون القصص حول الطائر الأبيض..

- قالت زنبقة: أنا أرى أنها حاملة.

- ردت أخرى..نعم.. ولكن ما فائدة العمر لو كان كله

واقعاً.

- ردت ثالثة.. بصراحة هي سعيدة إذ تستطيع التخيل.

- قالت رابعة.. عن نفسي أريد حباً كهذا.

- وهل هو حب؟ إنها مجرد صداقة.

- أياً ما يكون، المهم أن أجد قلباً يشعر بي.

- ثم ماذا؟ لن شعري بالراحة معه.

- إيه أيتها الزنابق.. لتحلم كل واحدة بما تريد.

- أنا عن نفسي أحلم بحقل كبير من الزنابق.. كله من

نتاجي.. أرمي بذوري في كل مكان وأزهر.. ما الفائدة أن

- أحلم ثم أجد نفسي وحيدة وقد تغير العالم كله من حولي؟
- الأحلام وحدها طموح.
 - عندك أنت.. أما أنا فمسؤولياتي أكبر.
 - جيد يا حكيمة.. إذاً عيشي وموتي في واقعيتك.. وماذا ستستفيدين من حقل زنبقي؟
 - نظرت الزنبقة إليها "باشمئزاز" وقالت.. هذا هو الأصل.. لقد خلقت لأكون زنبقة.
 - ردت أخرى مؤيدة.. ووافقتها ثالثة ورابعة.
 - ...
 - وخلق ليكون طائراً.. لماذا أصر على رفع رأسي نحو الأعلى لأراقب السماء.. بينما في الأرض صور من الجمال؟ أفضل أن أعيش زنبقة، وأرى الزنابق من حولي..
 - ويدور جدل كهذا ولا ينتهي.
 - لم يكن الحال بين الزنابق الأكبر سنّاً.. والأعمق خبرة.. والأكثر دراية بأفضل من الحال بين الزنابق الشابة. كنّ يتجادلن في غضب ويتقدن الجيل الجديد.
 - لم نسمع عن شيء كهذا.
 - نعم.. هذا غريب.. لقد انتهى الزمان.
 - أذكر أننا في شبابنا لم نكن نعلم عن وجود شيء اسمه طيور.

- كنا نعرف فقط الزنابق والنحل.
تضحك زنبقة عجوز..
- أنت لم تعرفي ولكن أنا عرفت.
ويسود الابتسام.. ولكن كان الكل متعجباً.. بين منتقد
وحاسد.

(3)

ها هو ذا الشتاء القارص يهبط بثقله على الدنيا.. يكسو الكون بحبيبات الندى المتجمدة.. ويغطي القلوب بموجة الجليد هذه.. تنعكس الشمس على صفحته الصافية.. منظر يحمل الحياة والموت.. ومن بين طياته تخرج أصول أشجار مبتسمة.. ونباتات تقاوم الموت والبرد.

لم يعد الطائر.. وكذا الزنبقة.. كان رحيلاً مشتركاً.. الطائر بجسده.. والزنبقة بروحها.. ترتجف أوراقها تحت سهام الفجر.. تفكر في حزن يأويها.. توهم نفسها بقربه.. تشعر بهمس.. وتغمض عينيها علّها ترى طيفه.. تعيش في عالمه وعالمها.. نسيت أو تناست الزنابق من حولها.. والنحل قريب منها.. والطيور تعانق حقلها.. تسمع خفق أجنحة.. تنظر بلهف، تقلب بصرها في الفضاء.. تتمنى أن يكون هو.. ولكن...

- في الليل.. نجوم وجليد.. وحدة وغربة.. تنظر إلى السماء فتري النجوم زاهرة.. تتذكره وتصرخ بملء صوتها.. يا طائري الحبيب.

- ردد الليل صدى صرختها.. وسمعت صوتاً في الظلام
يجيب عليها.. بنيتي.
- من.. من ينادي؟
- أنا عمك الشجرة.. ارفعي رأسك.
- رفعت رأسها لترى الشجرة تنظر إليها بحنان.. هذا أنت
يا عمتي؟
- بنيتي.. ما بك؟
- ...
- الحنين إلى الحنون.
- نعم.
- لقد حضنت بيته هنا كما رعيت تربتك.
- فرحت الزنبقة بهذا الكلام.. صحيح؟ أتعرفينه جيداً؟
- هل لامست ريشه؟ هل سمعت تغريده؟
- نعم.
- إذاً أنت تعذريني في حبه.
- لم ألمك أبداً.. ولكن أشفق عليك.
- لماذا؟
- لأنه وهم يا صغيرتي.. سراب خادع تقتلين نفسك فيه.
- كيف؟
- أنت زنبقة.. وهو طائر..
- وماذا يعني ذلك يا أمه.

- يعني أنكما مختلفان.
شعرت الزنبقة بموجات الأسي تمزقها.. وتتناثر أوراقها
من هول الصدمة.. هل هي حالمة في كل حبها ومشاعرها؟
أم أن كل شيء في الكون يحسدها على طائرها؟
لم يكن الطائر بعيداً عنها في تلك الأثناء.. رأته يأتي من
عمق الظلام.. يتسم لها.. يحتضنها.. يخبرها عن غيابه..
- أين كنت؟
- ابتسم لها..
- كنت قريباً منك..
- لماذا تأخرت؟
- الشتاء.. الشتاء يا صغيرتي.
- أريدك معي.. أحتاج إليك.
- وأنا أفتقدك.. ولكن لا أتحمل برد الشتاء.
- ...
- سأعود ثانية.. أقسم أنني سأعود إن استطعت.
- سأنتظرك.
- أريد أن أراك قوية.
- تصنعت الابتسامة.. لا تخف سأكون قوية.
- حلقت ثانية.. وغاب في أستار الظلام.
- يا طائري الحبيب.. سأنتظرك.. سأكون قوية بما يكفي..
لا تخف علي.. سأنتظر عودتك بعد الشتاء.

ذرفت الشجرة دمعة على هذا القلب المنكسر.. وقهقهه
الليل بفخر على صولته في نفوس المحبين.. وأضاءت النفوس
بالطهر.. وارتقب الكون ليرى ماذا تحمل الأيام..
إنها الآن بوادر الربيع.. إشراقة الشمس الدافئة.. وتغريد
الطيور العائدة.. وابتسامة الكون الفسيح.. لقد مر الشتاء
بقسوته.. وأقبل الربيع بفرحته.. تحملت الزنبقة الشتاء وهي
شامخة.. وها هي ذي الآن تنتظر طائرها.
أنفاس تتسارع.. وخفقات تتزايد.. ونظرات تترقب.. لم
تعد الزنبقة تعرف الأرض.. لأنها دائمة التطلع إلى السماء..
تشعر بالتعب والألم في كل جزء منها.. بدت أكبر من سنها
بكثير.. انحنت ساقها.. وبدت ذابلة مجهدة..
انتبهت على صوت خفقة تعرفها.. وصوت يصدح بألم..
نظرت إلى السماء بفرح..
- طائري.
- حط الطائر قريباً منها.. ابنتي.
الحقل كله ينظر إلى هذا اللقاء الأليم.. كان الطائر متغيراً
متعباً.. ذهب لونه الأبيض وفقد بريقه.. وغارت عيناه وبح
صوته..
- قالت له في عتاب.. تأخرت.
- ليس بيدي.. هجرتي كانت بعيدة.
- ابتسمت.. والآن سأكون مرتاحة.. أحتاج لدفع صدرك.

- ضمها بقوة.. وسقطت عبرة لم يدر لها سبباً.. شعر
بأنفاسها المتلاحقة.. هل أنت متعبة؟
- لا.. الآن سأرتاح.. تشنجت ساقيها.. وتغيرت أوراقها.
- ما بك يا صغيرتي.. لا.. لا ترحلي.
ابتسمت له..
- سأكون قريبة منك دائماً.. لقد وفيت بوعدتي لك..
وظللت قوية حتى عودتك.
- همس الطائر في حزن.. لا ترحلي.
- ابتسمت الزنبقة.. وبهدوء رحلت.
- أمسك الطائر الحنون بأوراقها وبكى في صمت. وتردد
البكاء في كل الحقل..
لم يرفع الطائر رأسه.. ظل قريباً من الزنبقة.. ثم صاح
صيحة رددتها كل نبتة.. وحملتها كل نسمة..
الأيام تمر.. وهي كفيلة بأن تنسي الألم وتبدل الدمعة
بالبسمة.. ويبقى في قلب الطائر وفاء لزنبقته.. وقصة يرويها
لأبنائه.. وترى الزنابق الصغار في الزنبقة الراحلة صورة من
الوهم والوفاء.. ولكن يشار إليها في تقدير.. لن تنتهي الدنيا
من أجل زنبقة.. ففي عالم الطير هناك قلوب كثيرة.. تحمل
له صافي الود.. ولو تأملت الزنبقة لوجدت في عالمها الكثير..
ممن حفظ الوفاء للحبيب.. فنقش أطيب الذكريات.. وزرع
أطيب الثمار..

في أسفل الشجرة الأم تجد نبتة صغيرة.. نمت فوق قبر
العاشقين.. يسميها البعض نبتة الوفاء.. وأطلق آخرون عليها
نبتة السراب. بينما يرى البعض أنها شاهد وفاء على محبة
نقية.. يرى البعض الآخر أنها رمزٌ للوهم والتعلق بالخيال..
وأياً كان اسمها فهي جميلة.. لأنها نتاج تجربة.. وثمره
معرفة.. وأنوار على طول الطريق..
حياة بدأت بهمسة وشوق.. وانتهت بعذاب ورحيل..
أشرقت شمس وأظلم أفق بعد مغيبها، وكل جيل يروي لمن
بعده.. بداية ونهاية.. ألم وأمل.. أشواق وأشواك..

فاصل

رحلة الثلوج..

كان لابد أن أنتهي من عملي مبكراً، فالحافلات هنا تتحرك في مواعيدها دون أي تأخير.. ولذلك يجب التوجه قبل موعد المغادرة بوقت كاف لأتمكن من إنهاء الإجراءات. لم يكن التبكير يمثل لي مشكلة لأنني لا أحب التأخر عن مواعيدي.. وزيادة في الحرص استأذنت مديري في تقديم مواعيد محاضراتي ونسقت مع أحد الزملاء بشأن ذلك، لأتمكن من الخروج قبل نهاية اليوم الدراسي لترتيب أغراضي.

كانت زوجتي قد سبقتنني منذ يومين.. وقد حاولت في فترة غيابها أن لا أكثر من استخدام الأواني المنزلية لأنني لا أحسن ترتيب البيت.. ولم استخدم غرفة النوم أيضاً واكتفيت بأريكة الصالة، وبهذا قللت المساحة المستخدمة لمعيشتي.. ولم أحاول استعمال المطبخ لصنع أي شيء.. وهكذا ضمنت أقصى حد للنظافة في المنزل.. أمر واحد بقي يشغلني وهو الحمى التي أصابتنني قبل يومين.. وظلت تعاودني بين ساعة وساعة، وتشتد عليّ في الليل.. ولذلك حجزت على رحلة

الضحى لأصل إلى مدينتي بعد العصر.
في الساعة العاشرة كنت قد أنهيت آخر محاضراتي..
فحملت حقيبتى الصغيرة وانطلقت إلى محطة الحافلات.. وفي
ربع ساعة وصلت إلى هناك.. كانت الحركة نشيطة في
المحطة.. صوت المذياع يصدح بموسيقى الصباح ويملاً الجو
ضجيجاً.. ورائحة القهوة تفوح من أكشاك بيع الصحف..
وعمال المحطة ينتشرون هنا وهناك.. والأرصفت تمتلئ
بالحقائب.. نظرت إلى ساعتى.. كانت تشير إلى العاشرة
والثلث.. بقي عندي قرابة خمس وعشرين دقيقة قبل موعد
الانطلاق.. أسرعت إلى شباك التذاكر..

- هل لديك حقائب؟

- لا.. فقط حقيبة صغيرة سأحملها معي.

- يمكن أن تتأخر الحافلة.. الطريق مليء بالثلوج.

- ولكن الجو صحو تقريباً.

نظر إلى الموظف ثم تابع عمله.. ودون أن يتلفت إلي

أضاف:

- ولكن الجو في المدينة الأخرى غائم.. والثلوج تتساقط

طوال ليلة البارحة.

ابتسمت له وأخذت تذكرتي وشكرته.. ثم اتجهت إلى

الرصيف المخصص للرحلة.

كان هناك بعض المسافرين يقفون في انتظار الحافلة..

اتجهت الأنظار إلى الجهة التي ستصل منها المركبة.. وبدأ الجو يتغير.. تأخرت السيارة ومر الوقت بطيئاً.. ومع النسمات الباردة، شعرت بالتعب والمرض يزحفان إلى جسدي وأوصالي.. وفي الساعة الثانية ظهرت الحافلة.. ومع صيحات التذمر التي كانت تصدر من الناس وصل صوت السائق شاكياً متعباً.. ومنذراً برحلة صعبة فالأجواء سيئة جداً.. والطريق شبه مغلق في بعض المناطق.. أو سيغلق كلياً.

انطلقت بنا الحافلة وحل التعب بالناس.. مع أننا ما زلنا في بداية الرحلة.. ولكن فترة الانتظار أجهدت البعض وبدأ ذلك على قسمااتهم.. لقد كان الجو قد أخذ في التغير.. والسماء شبه الصافية لم تعد كذلك فقد امتلأت بسحاب أسود يؤذن بهطول الأمطار. وكان من المقرر أن تقطع الرحلة في ست ساعات.. ولكن مع سقوط الأمطار أخذ السائق في تخفيف السرعة.. وبتساقط الثلج أصبحت حركتنا أكثر بطئاً.. واضطررنا إلى التوقف لأكثر من مرة بسبب تعطل بعض السيارات.. كما أوقفنا الشرطة للتأكد من وجود سلاسل على إطارات السيارات.

بدأت الحمى تشتد عليّ.. شعرت بالبرد يعانق عظامي.. جلست في مقعدي والتفتت على نفسي.. وأخذت أتأمل في المنظر خارج الحافلة.. كانت حبات المطر قد بدأت تثقل.. وحبات الثلج أخذت تتساقط.. ورأيت رجال الأمن على

جانبي الطريق يتفحصون السيارات ويرجعون بعضها.. تغيرت السماء بما يوحي بليلة شديدة الأمطار والثلوج.. ومع مغيب الشمس كنا قد مشينا في الطريق السريع ولكننا نسير ببطء. اشتدت عليّ الحمى.. وبدأت أروح في غيبوبة بين لحظة وأخرى.. الألم يمزق مفاصلي.. ثم توقفت الحافلة وشعرت بحركة غريبة بين الركاب.. اقترب السائق مني.. ووضع يده على رأسي.. كنت أراه كالطيف لا أكاد أميزه.. وسمعته يخاطب بعض الركاب يطلب منهم النزول لمساعدته في تحريك الحافلة من مكانها.. ثم نظر إلي ثانية وهمس لمرافقه.. إنه محموم.. لم يكن هذا اليوم مناسباً لسفريه. كنت أفكر في صغيري.. وأحسست بالوقت يمر بتناقل.. خرجت من مكاني لأرى ماذا يفعل الرجال.. كانت عجلات الحافلة مغطاة بالثلوج.. وكان الهواء البارد يضرب وجهي ورأسي فيزيد ألمي.. التفت إلي أحد الواقفين.

- أنت.. لماذا خرجت؟ ارجع مكانك سوف تشتد عليك الحمى.

- أريد أن أساعدكم.

- لا يمكنك ذلك.. أنت مريض.. كما أننا نوشك أن

نتهي.. ارجع إلى مكانك.

عدت إلى مكاني ثانية.. كان كل الرجال في الخارج.. لم

يبق سوى النساء والأطفال وأنا.. عند الثانية عشرة ليلاً

تحركت الحافلة بحمد الله وخرجنا من مكاننا.
مرت ساعتان قبل أن نصل إلى وجهتنا.. هناك كان الثلج
يغطي كل شيء.. يمكن أن نرى أثر العاصفة الثلجية التي
أقفلت الطريق.. فقد كان الثلج يبدو كرجوة صابون كبيرة
غطت كل شيء.. وبدت المدينة كأنها لبست رداءً أبيض ثقيلًا.
كان عليّ أن أجد سيارة أجرة تنقلني إلى منزلي.
توقفت أمامي سيارة ونظر إلي السائق مبتسماً..
- اسمع لن تجد سيارة أجرة.. مارأيك أن أقلك؟
بادلته الابتسامة
- حسناً.. هل يمكن أن تقلني إلى قرية الجبل؟
تردد قليلاً.. ثم قال:
- للأسف، الطريق ستكون مغلقة بالتأكيد فهناك الأحوال
أشد مما هي عليه هنا.
- إذا سأنتظر سيارة أجرة.
- اسمع يا عزيزي.. اليوم لا توجد سيارات أجرة.. ولو
وجدت فلن يقلك أحد إلى هناك.. ولكنني سأوصلك إلى آخر
نقطة يمكن أن تسير فيها السيارة ثم عليك أن تتابع أنت أو
تنتظر سيارة توصلك إلى منزلك.
فكرت قليلاً.. وبدا لي كلامه وجيهاً.. واتفقنا.
وصلت في الثانية والربع إلى أسفل القرية.. وعليّ بعدها
أن أقطع مسافة أربعة كيلو مترات قبل أن أصل إلى بيتي..

وبدا لي الطريق إلى القرية مقطوعاً فعلاً، فلا أثر على الثلوج.. مما يدل على توقف حركة السير. حاول قائد السيارة أن يقربني إلى آخر نقطة ولكن الطريق أصبح خطراً علينا.. فقد التحكم في السيارة فاضطر إلى التوقف، كان عليّ حينها أن أنزل وأكمل بقية الطريق مشياً على قدمي. لم أعد أشعر بالحمل فتفكيرني في الوصول إلى ابني جعلني أشعر بنوع من النشاط.. ولكن مفاصلي تؤلمني.. كان هناك طريقان يوصلان إلى القمة.. عليّ أن أختار أحدهما.. ولأن الأجواء لم تكن تبشر بسيارة تمر في هذه الساعة من هذا المكان فقد اخترت الطريق الأقصر مع أن حركة السير فيه أقل.. حملت حقيبتي وانطلقت في طريق متعرج شديد الانحدار. المسافة لم تكن طويلة.. ولكن في هذه الظروف تراءت لي الطريق طويلة ومع أول جزء فقدت الإحساس بأي شيء حولي وتسارعت أنفاسي ولم أعد أرى شيئاً حولي.. ولكنني تابعت المسير وحببات المطر تبلل وجهي والبرد يتسرب إلى أعماقي.

كان السير وسط الثلوج صعباً.. وكلما مررت بجوار منزل نبحت عليّ كلابه فأسرع في مشي كيلا يستيقظ أهله ويظنون أنني لص.. ألقيت حقيبتي على الأرض ورميت بنفسي عليها لكي أبعاد جسمي عن الثلج.. أمسى شبح الموت يتمثل لي في كل آونة، أخذت أتخيل صغيري وأبتسم ترى ماذا يفعل في هذه الساعة؟

وقفت مرة أخرى وتابعت السير.. لم أعد أحس بالألم مثل السابق.. ولكنني كنت أشعر بأنني سأموت قبل أن أصل إلى المنزل.. وعند الساعة الرابعة لاحت لي المنازل القريبة من منزلي وعادت الروح برؤيتها إلى صدري.. اشتد عزمي على المتابعة.. وعند الرابعة والنصف وصلت إلى منزلي. كان البرد يضرب كل جسمي.. ولم أعد أشعر بالتعب ولكنني كنت أمشي مترنحاً.. وضعت يدي على الباب الخارجي عاجزاً عن قرعه.. ثم جمعت ما بقي من قوتي وطرقت الباب بهدوء.. سمعت حركة خلف الباب.. وصوتاً يسأل..

- من هناك؟

- هذا أنا.

فتح والد زوجتي الباب ووقفت زوجتي وأمها خلفه..

- أوه هذا أنت كيف وصلت هنا في هذا الساعة؟

ابتسمت لهم:

- أتيت مشياً..

ثم لم أعد أشعر بشيء بعد ذلك.

- استيقظت من النوم حوالى الساعة الثانية عشرة ظهراً..

نشيطاً.. سعيداً.. نظرت إلى زوجتي. كانت تجلس بجوارى..

فابتسمت لي وسألتنى..

- كيف حالك؟

- أنا بخير.. يبدو أنني نمت جيداً.
بقيت مبتسمة..
- نعم هو كذلك.
- أين الصغير؟ أريد أن أراه.
- إنه نائم في الأعلى. سأحضره لك إذا استيقظ.
- هل توقف تساقط الثلج في الخارج؟
- أتدري أنك نمت ثلاثة أيام؟
صدمني كلامها.. فنظرت إلى التاريخ في الساعة.. لقد
كنت في غيبوبة لمدة ثلاثة أيام.. رفعت رأسي إليها وابتسمت
في تردد.. وقطع عليّ ذهولي صوت الصغير وهو يبكي.



فاصل

رحلة إدارية..

كان المكان يشبه منتجعاً ريفياً بسبب كثرة الخضرة والأشجار وخاصة حول الوحدات السكنية وتحت الشرفات الرئيسة للمباني.. ولو تخيلنا المكان لعرفنا أنه صمم بطريقة تدل على ذوق تجاري لطيف.. ففي يمين الداخل إلى المجمع أقيم صف أبنية علاه قرميد أخضر، ولم يكن في الحقيقة سوى مبان متعلقة بالخدمات العامة، وقد أقيم طريق صخري لطيف طليت أطرافه باللون الأبيض، ثم يتفرع الطريق إلى طرق أصغر تؤدي إلى المباني ذات الدور الواحد.

واهتم البستاني بتزيين هذه المنطقة إذ إنها مسؤولة الإدارة، ولذلك بدت غاية في التشذيب والجمال.. وعلت في أقصى اليمين نخلة استوائية أعطت المكان مزيداً من الشاعرية.. وفي أسفلها مجموعة كراس شمسية ومكان معد للشواء.

وفي الأمام ومباشرة بعد وحدات الصيانة والخدمات، صف طويل من الوحدات السكنية الرائعة التصميم، والمغطاة بقرميد أحمر نقشت عليه أرقام الوحدات.. وكل وحدة لها

مدخلان يؤدي كل واحد منها إلى دور مجهز بغرف نوم وغرفة طعام ومطبخ وغرفة ألعاب وبعض المنافع المهمة وصالة داخلية وشرفة خارجية تصلح لجلسات الشاي والقهوة التركية المشهورة في هذه المنطقة.

وينتهي الصف الطويل بمسبح أولمبي في صالة زجاجية إضافة إلى ملحق خشبي تغطيه الأشجار ويقع فيه النادي الصحي والسونا والعلاج الطبيعي وغير ذلك مما يهتم به أهل الرياضة.

في الجهة المقابلة تماماً للوحدات السكنية تقع صالة اجتماعات كبيرة مجهزة بأحدث المعدات من وسائل عرض، وخرائط، ونظم معلوماتية وغير ذلك.. وبالقرب من المدخل الرئيس على يسار القادم حديقة استوائية رائعة يتوسطها مبنى صمم على شكل معبد صيني، واتخذته إدارة المجمع مقراً لها، وبجانبه وضعت بعض الأقباص المرتبة على هيئة حديقة حيوان صغيرة وضع فيها بعض الحيوانات النادرة.

هذا هو المكان الذي قررت البعثة إرسالني إليه للاجتماع السنوي لعلماء الإدارة والتخطيط.. وكنت أرى في وجه الرجال نوعاً من الرفاهية المقيمة التي هي في حقيقتها كسل وجبن وتعلق بأسباب الحضارة المادية.. لم أكن متمسكاً تماماً بإسلامي ولكن المكان أعطاني شعوراً بتميزي، وتوقعت أن تطول فترة إقامتي، لذا أرسلت لأخي في طلب مجموعة من

الكتب الشرعية التي تتعلق بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم.

انتهى الشهر الأول في برامج مملة نوعاً ما.. ولأن الجميع حضروا بأهاليهم عداي فقد كانت لديهم برامج تخصص الأسرة ولكن لم يكن لي مكان كبير فيها لاختلاف الثقافة.. وبدأت أعد مشروعني الذي سأبناه في هذا المؤتمر الذي هو أقرب لورشة تنظير إداري، وأنهكت نفسي في البحث والتأمل والدراسة والترتيب.. حتى حان موعد إلقاء أطروحتي الإدارية.

- أنت مجنون يا أحمد؟

- لا.. لست مجنوناً.

- كيف لا.. وهذه هي أطروحتك.. أتدري من ستقابل

هنا؟

- نعم.. كل أقطاب الصناعة والإدارة في مختلف دول

العالم.

- جميل.. جميل.. إذاً أنت تعرف حقاً من ستقابل.. ومع

ذلك فأطروحتك لا تدل على فهمك.

- لماذا يا دكتور؟

- ما دخل الدين في الإدارة والاقتصاد؟

- سادنا لحظة صمت، ثم قطعها بردي عليه، ومن قال

لك إنني سأتكلم عن الدين.. أنا أتكلم عن الإدارة في عهد

رسول الله صلى الله عليه وسلم.

رد علي مستهزئاً.

- وهل كانت هناك نظم إدارية في ذلك الزمان؟

- ربما لم تكن مكتوبة.. ولكن السياسات التي مشوا عليها تعطي عمقاً إدارياً قوياً في حياتهم.. وإلا ما قامت الدولة الإسلامية بهذه الصورة القوية والمبدعة في ترتيباتها وتقسيمات المهام فيها.

كنت متحمساً للفكرة بشدة.. وبذلت جهدي طوال شهرين كاملين في دراسة بعض المقاطع التي رأيت فيها قوة إدارية وخاصة المعارك، والعلاقات العامة.. ومنها استطعت أن أرسم الخطوط الكبرى في العلاقات الإدارية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته.

وبعد كلام رئيس الاجتماع أدركت أنني سأخوض حرباً لإثبات صحة نظرياتي.. وإن كان هذا المسلم واجه الأمر هكذا فكيف ستفعل الشعوب الحمراء والصفراء.

- معنا الآن الدكتور أحمد..

هكذا أعلن اسمي أمام الجميع وتقدمت أحمل حقيبة وضعت فيها جهاز الحاسوب الخاص بي.. ومجموعة قصاصات دونت فيها أهم المحاور التي سأطرق إليها.

- ألقيت التحية.. وساد الصمت.

- ليس المهم أن أقف هنا أنا أو غيري لطرح نظريات خيالية لمعالجة أوضاع الاقتصاد.. والتصدي للنكبات

والأزمات، وتوفير مستويات معيشية مناسبة للمجتمع.. ومن ثم وضع صور مثالية للتطوير. بل المهم أن آتي لكم بسبب يعالج كل ما ذكرته من سلبيات.

- منذ أكثر من 1424 سنة خرج دين جديد على مجتمع صحراوي لا يعرف من صور الحضارة شيئاً سوى الخمر والنساء وبعض عادات فيها نبل كالكرم والشجاعة مع ما خالطها من الرغبة في المدح وغير ذلك.. ولكن رجلاً خرج من هذه البيئة قاد هؤلاء إلى تحقيق أروع الصور في السلوك والتعامل، مع معطيات الحياة لصنع النجاح من خلالها.. إنه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

سرت مهمة في القاعة الكبيرة.. ولكنني لم التفت إليها بل تابعت حديثي.. وأخذت أسرد في صور سريعة ملامح من الواقع الجاهلي، وبالمقابل صور التغير التي حدثت في المجتمع بعد إسلامه، وكيف تعامل معه أعداؤه بشدة ولكن بالمقابل وثقوا فيه ليقينهم من صدقه.

- كانت أول صور الإدارة هي ضبط النفس في مواجهة العداة ومقابلة الإساءة بالإحسان، ومع أن العربي يرفض الضيم إلا أنهم امتثلوا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلم يتصرف أي منهم بأي تصرف يخالف أمره، ولم يقاتل أحد منهم، وما كانت تنقصهم الشجاعة ولكنه التغير الذي حدث في النفوس.

- وكانت الزكاة تؤخذ من الأغنياء لتعطي للفقراء لعمل توازن في المجتمع، ثم فتح باب الصدقة لسد ثغرة أكبر، ثم كان التآخي في صورة لم يعرف التاريخ كله مثلها.. إذ كيف نتصور أن يحل أهل مدينة ضيوفاً على مدينة أخرى فيتقاسمون معهم كل شيء ويشاركونهم في حياتهم حتى لا تكاد تعرف من هم أهل البلد الأصليون.. وبدأت الفتوح.. فإذا بالبدو ينتظمون في جيوش ويقاتلون في صفوف في سابقة تاريخية ما عرفها الناس وظهرت صور من الإدارة فريدة توجت بانتصارات في بدر، وأحد، و القادسية وغيرها. وأما بيت المال فكان مخزن الدولة.. ينتفع به الجميع تحت إدارة الخليفة.. وتكلمت عن مهام الخليفة وطبيعة العلاقة ومعالجة المواقف التي قابلوها.

كنت أتحدث في سعادة ونشوة.. ومع أن الوقت انتهى إلا أن أحداً لم يغادر مكانه أو يقاطعني، بل كان الكل مندهشاً لعرضي للجوانب الإدارية في كل المواقف التي ذكرتها، في الوقت الذي كان البعض ينزوي خجلاً من تاريخه، وقف أقطاب الإدارة في العالم يصفقون ويشنون ويعجبون كيف لم يعرض أحد هذا الكلام من قبل.. وكيف يفرط المسلمون في هذا التراث المجيد.



فاصل

أول يوم دراسي..

وقف بسيارته بجوار المبنى وأخذ ينظر في صمت حزين إلى الباب الأسود الكبير.. شعر بضآلته أمام هذا المارد.. أيعقل أن تمر الأوقات بهذه الصورة المرعبة في نفوسنا فتقتل كل لحظة جميلة عشناها؟

التفت إلى الباب ثانية، لم يكن ينتظر خروج الأطفال فهو يعلم أن المدرسة مغلقة في هذا الوقت.. كانت الساعة الواحدة ليلاً والشارع خالياً من المارة.. رجع بذاكرته إلى الوراء وتذكر مدرسة القرية.. اليوم أول يوم دراسي له.. تذكر ابتسامته وهو يجري في الحديقة.. تحديه له في سباق يبدأ من مكان أمه وينتهي بنهاية الشاطئ.. المرور بين العربات في المحلات التجارية وهو يرتدي حذاء التزلج.. وكلما رجع لعربته يضرب ظهره في ابتسامة بريئة تعجز كل ريشة عن تصويرها.

تذكر أنه لم يأكل شيئاً منذ الصباح.. تحرك بالسيارة وتوقف أمام مطعم اللوجبات السريعة.. نظر إلى المقعد الفارغ بجواره وابتسم ودمعة تنحدر من عينيه وخاطب المقعد.. ماذا

ستأكل؟

لم يكن ينتظر الرد.. لكنه فعل كما كان يفعل دائماً معه..
لم يكن يراه مجرد طفل.. بل كان طفله وزميل عمله وكل
شيء في حياته.

أوقف السيارة ثانية على الشاطئ المظلم.. سكنت نفسه
لصوت الأمواج.. وعادت الصور في ذهنه من جديد.. حملة
على كتفه.. وضع يده الصغيرة على رأسه.. ووضع ذقنه فوق
يده.. وبدأ يكلمه.

أبي.. أريد هذا القلم.. وأريد هذه الأوراق الملونة لأرسم
فيها.. واو أبي أريد هذه الحقيبة الصغيرة لأضع فيها أوراق
ميدو.. ميدو الدب الصغير الذي لا يفارقه حتى في منامه.
ويلتفت إلى ميدو المرتبط بصدره.. تريد هذه؟ سأشتريها لك.
أبي هذا اللون لا يصلح.. لا بد أن تغيره لي.. أنظر لدي
هنا ملابس كثيرة تشبهه لماذا اشتريته.. المرة القادمة أنا
سأذهب معك لأشتري بنفسني.. يتركه يركض إلى غرفة
مجاورة.. يعود إليه مبتسماً ويختطف قبلة تطبعها شفتاه
الصغيرتان.. أشكرك أبي.

- أبي.. أنت كبير؟

- نعم يا بني.

- يعود لذهوله المفاجئ.. وأنا.. كبير، أم.. صغير؟

- أنت رجل كبير جداً.. أنظر. ويقف الأب على ركبتيه

ويقترب من الابن الجالس على السرير.. يساوي الرأس ثم يقول أنظر.. أنا أصغر منك.

- ويبتسم الابن.. وسأذهب إلى المدرسة؟
- نعم وستكون أفضل مني.
- وأشتري حذاء تزلج جديداً؟
- تريد حذاء جديداً؟.. لديك اثنان.
- أريد الفضي.. أعجبنى ويتناسب مع هذا القميص.. وترتسم الابتسامة ثانية.
- حسناً سأشتريه لك غداً بإذن الله.. هيا الآن للنوم.
- التفت إلى السماء.. النجوم تزهر.. وعادت ابتسامته ثانية..
- بابا.. أعطني حبلاً.
- لماذا؟
- الشمس ستختفي في البحر.
- ولماذا تريد الحبل؟
- سأرميه عليها وأرفعها فوق.. ليزداد النور.
- آه لو علمت بما حدث لأبيك يوم رحيلك يا بني.. عاد لليل والبحر يتأمل في سكونهما.. وصوت الأمواج الخفيف يضرب الشاطئ في لطف.. وأضواء صغيرة بعيدة على امتداد الأفق توحى بالمشاركة في هذا الملكوت.
- خلاص.. يكفي كلام.
- ما بك يا بني؟

- أتعبوني بالكلام.. أوجعني رأسي.
يبتسم ثانية ابتسامة أقرب ما تكون للبكاء.. هذا الصغير
واختفت الكلمات من شفثيه.. وعاد ثانية لمكانه.
نزل من السيارة وبدأ يمشي.. الرمل ناعم.. ورجله تغوص
فيه.. عادت الذكريات لنفسه.. أبي انتبه لا تتسخ وإلا ستغضب
أمي.. امش هكذا.. ويتحرك بهدوء على الشاطئ.. يعود
مسرعاً إلى سيارته.. يرتمي على المقعد.. كل شيء، كل شيء
يذكرني به.
يتحرك بالسيارة.. الوقت قارب على الفجر.. يصل إلى
بيته وقت الأذان.. يصلي الفجر ويعود إلى غرفته.. يمكنه أن
ينام قليلاً قبل أن يذهب إلى عمله.. يغمض عينيه وصورة
الصغير ترتسم أمامه.



فاصل

حديث الحقائق..

سمعت جلبة شديدة وتعالى صراخ الصغار.. ثم فتح باب
السندرة القديمة وألقيت حقيبة، وأغلق الباب بقوة وساد
الصمت ثانية.

كانت السندرة القديمة تمثل مخزناً لهذه المنازل نصف
القروية.. وباستثناء كوة صغيرة مرتفعة لم تكن ترى النور إلا
في مرات محددة من السنة، تمثل الفترات التي تهتم فيها
الأسرة بتنظيف المكان وبالتخلص من بعض الأشياء القديمة
لتوفير مكان لأشياء أخرى ستلقى فيها ذات يوم.

أثارت الموجة التي مرت قبل قليل بعض الغبار.. ثم
بدأت الأمور تعود إلى هدوئها ثانية.. وعاد الغبار إلى التراكم
ثانية على الأشياء المكومة هنا وهناك. حقائب متعددة
المقاسات، قطع أثاث، أحذية مختلفة، مرآة مكسور طرفها
تقبع مائلة في ركن قصي، وصناديق فيها ملابس شتوية لم
يحن موعد استخدامها، وجرائد قديمة كانت مهمة ذات يوم،
ومعاطف الصقيع معلقة على مسامير حديدية وقد علاها الغبار
وبدأ العث يرتع فيها.

قطع السكون صوت ضحكة فتية.. فيما تملمت الحقيبة
الملقاة وبدأت تعدل من وضعها.. ثم التفتت إلى مصدر
الصوت وسألت بغضب:

- لم تضحكين؟

ارتفعت القهقهة دون اهتمام بالسؤال.. فيما تملل صوتٌ
عجوز مستنكراً الضجة..

- ما الذي يجري هنا؟ لماذا ترتفع أصواتكم.

سمع صوتاً من الزاوية المظلمة في السندرة يقول:

- يبدو أن هناك ضيفاً نزل علينا.. أهلاً بك أيتها الحقيبة

الصغيرة لماذا تبدين غاضبة؟

ردت الحقيبة الصغيرة:

- أريد أن أعرف لماذا تفهقه هذه الملونة؟

أجابت الملونة:

- أهلاً بك.. اسمي ليلي، أنا حقيبة ألعاب الطفلة هناك

في الأسفل. ضحكت لأنني شعرت بحالك.

- وما المضحك المضحك في حالي؟ ردت الحقيبة

بغضب.

- كلنا هكذا حين نصل إلى هذا المكان.. نشعر بالغضب

في البداية لأننا لم نتعود على الغبار.. ثم نألف الأجواء

وسرعان ما يصبح شعور الغضب نوعاً من اللامبالاة.

أخذت الحقيبة تمسح آثار الغبار عن جلدها وهي تغمغم

بكلام لم يفهمه أحد.. ثم رفعت رأسها بنوع من التكبر
وقالت:

- ولكنني لست كالأخرين.. الأمر لا يعدو ظرفاً خاصة
تمر بها الصغيرة، وسرعان ما ستفتقدي وتعود لتبحث عني
وتخلصني من الأشخاص غير المحبين.
ضحكت الحقيبة الملونة.. فيما رد الصوت العجوز بنبرة
فيها عمق التجربة:

- جميل، جميل أن يعيش الإنسان بالأمل.. وجميل أيضاً
الثقة بالنفس. ولكن الأهم من الإحساس بالأمل هو أن نستمر
نحيا به.. ونشعر بقدرتنا على العطاء بالرغم من كل الظروف.
رد صوت خافت من داخل أحد الصناديق..

- لا عليك يا أماء.. هكذا كنت أقول في البداية،
ولكنني اليوم سعيد باستقراري داخل هذا الصندوق..
ثم فتح الصندوق وأطل رأس صغير يشبه فرده حذاء
طويلة العنق.. وتابع كلامه:

- أتريدين الحقيقة.. الرضى بالصندوق أفضل من أسنان
كلب تقبض عليّ، وتجري بي في الشوارع والمزابل، وتلقي
بي في النهاية عند بركة ماء خلفتها الأمطار بجوار رصيف
قذر.

ثم عاد وأغلق الصندوق.

- ما الذي يجري هنا؟ ما هذا الكلام.. صاحت الحقيقية

برعب.

- ضحكت الحقيبة السوداء بحنان ثم قالت:
اقتربوا مني يا صغاري وانصتوا إلي أقص عليكم قصة
هذا المكان.

بدأت الحقائق والصناديق تلتفت إليها مصغية إلى قصتها..
فيما أخذت العجوز تروي.

- في الماضي كان لهذا المكان وزن وقيمة.. لأنه كان
محطة مؤقتة.. ففي الصيف توضع فيه أغراض الشتاء، وفي
الشتاء تحفظ فيه أشياء الصيف، حتى يحين موعد استبدالها..
وكان الناس وقتها يهتمون باقتناء ما ينفعهم.. ولأنهم يعيشون
على الأرض فهم يقتصدون في كل شيء.
عالم الناس كعالمنا تماماً.. فلكل شخص مهمته أو
وظيفته في الحياة.. تماماً كالوظائف التي نؤديها.. فالحقيبة
التي تصلح للمدرسة لا تصلح لحفظ طعام الرعاة.. وهكذا
لكل قيمته.

مع التطور بدأ يتغير هذا المكان.. وأصبحت تلقى فيه
أشياء عديمة النفع، ثم يتم ترتيب المكان لتلقى في المزابل
وتنسى.. وأصبح من يأتي هنا لأول مرة يشعر بالتذمر، ثم
لا يلبث أن يتعود فتخمد ثورته، ثم يصمت حتى يأتي يوم يعاد
استعماله، أو يلقي خارجاً.

- وما ذنبي أنا؟

- ليس لك ذنب يا صغيرتي.. كما أنه ليس لأحد ذنب في هذا.. لقد تغير كل شيء.. فليس لكم قوة الأسلاف.. كما أنه ليس لنا منظركم البراق.

- وهل.. هل.. سيرمون بنا؟

- هذا يا صغيرتي يتوقف عليكم.

- ماذا نفعل؟

- حافظوا على جمالكم.. خيوطك الصغيرة إذا تمزقت من الحزن سيفسد مظهرك، وستفقد قوتك.. وسيلقون بك حين تصبحين عديمة النفع. ولكنهم سينظفونك ويعززون خيوطك بخيوط أخرى إذا رأوا أنك ما زلت صالحة للعمل، وأنتك تحافظين على عطائك.

لم تظهر علامات الرضا على الحقيبة الصغيرة.. وفي الوقت نفسه سمع صوت اصطدم طائر صغير بالنافذة، حاول العبور ولكنها كانت موصدة.

قالت الحقيبة الكبيرة:

- هذا الطائر على سبيل المثال، لم ييأس من محاولات الدخول هرباً من الشتاء.. مع أنهم هدموا عشه ثلاث مرات.. وسينجح حتماً.. على الأقل وجد لنفسه مكاناً تحت قرميد المنزل، ولن يلبث أن يجد طريقه من خلال الأخشاب. إن الحياة لا تنتهي.. هي هكذا دائماً.. تمنح من يجتهد فيها.
- لكنها أنانية.

- لا يا صغيرتي.. ليست كذلك.. هم من صنعك..
ويريدون الاستفادة منك.. قدمي لهم شيئاً مقابل الساعات التي
عملوا فيها بين الآلات لأجل أن يخرجوك بمنظرك الحالي.
- ولكن لنا الحق في الحياة.
- نعم.. صحيح، وهم أيضاً يريدون الحياة.. وكلانا
يكمل الآخر.. لكل منا قيمته.
- قالت حقيبة زرقاء كبيرة:
- أوه يا جدتي.. ما زلت تكرر الكلام نفسه.. ليس لهم
من الخبرة ما لك.. الأيام كفيلة بتعليم الناس.
- ردت الحقيبة الصغيرة:
- وماذا تفعلين أنت؟
- أنا حقيبة الجد.. حين يسافر فإنه يتذكرني.. يأخذني،
ينظفني، وأحياناً يصبغني لأبدو بمظهر الصغيرة. لقد جبت معه
عديداً من البلدان، ورأيت كثيراً من الأشياء.
- وهذه الملونة؟ أشارت إلى ليلي.
- ليلي حقيبة قماشية.. إنها للزينة أكثر منها للاستعمالات
العملية. حين تقام الاحتفالات يأتي مقامها.
- فاشلة..!! قالت ذلك بترفع.
- فتح الباب فجأة واندفع صبي وطفلة يتعاركان:
- قلت لك لا ترم حقيبي مرة ثانية.
- وأنا قلت لك اتركيني وشأني.

- أين ألقيتها أيها المتوحش؟
قال الصغير بتكبر..
- لا أدري، حاولي أن تجديها بنفسك.
التفتت الصغيرة إلى حيث تجمعت الحقائق بجوار
الجددة.. ثم صاحت بفرح..
- أوه ما أجمل هذا. أنظر كل حقايتي هنا.
جرت نحو الحقائق ثم رفعت ليلي وشرعت تنفض عنها
الغبار..
- ما زالت جديدة، فقط تحتاج إلى تنظيف.
ثم أمسكت بالحقيبة الصغيرة:
- وهذه حقيبتني لقد وجدتها، لن تستطيع أن ترميها ثانية.
التفت الصبي إلى الصندوق وهناك لمح الحذاء البني..
لمعت عيناه في لهفة:
وهذا حذائي.. لقد وجدته..
سحبه بعنف وضربه في الجدار لينفض عنه الغبار.. فيما
ارتفعت صيحة الحذاء المتألم. وقبل أن يخرج فتح النافذة
ليجدد الهواء.. وليدخل الطائر الصغير.

فاصل

الأجنبي..

لن أحاول أن أكتب الأمر وكأنه قصة قصيرة، ذلك أنني أنتقد الكثير من الشباب ممن يبحثون عن الألفاظ الصعبة ليكتبوا مقالاً أو قصة.. ولكنني باختصار أريد أن أكتب قصة صاحبي. لمن أكتبها؟ ولماذا؟ لا أدري في الحقيقة، كل الذي أعرفه أنني لا بد أن أكتب عنه وأوفيه شيئاً من حقه في واقع أنكره وتجاهله.

وقف أمامي بقامته الممشوقة وأشار إلى صدره بكلتا يديه ثم قال بأسلوبه المثقف جداً:

- لنكن واقعيين، فأنا مهما يكن "أجنبي". وطرح يديه إلى جنبه في حركة تدل على تدمر وألم.
لم أحاول أن أقاطعه.. بل حتى الابتسامة التي أحفظ بها حين أراه شعرت أنها قد لا تكون مناسبة. ولذلك لم أعلق بأي شيء.

- الأولاد كبروا يا عزيزي.. ومهما يكن فلهم مطالبهم. غداً سيبحثون عن جامعة تقبلهم، ولن تتسنى لهم الفرص لأنهم "أجانب".

مد رأسه باتجاهي ليرى تأثير كلامه عليّ.. ثم تابع كلامه
بذات الأسلوب المرير:

- وإذا عادوا إلى بلادي ماذا سيحدث؟ سيقال لهم أنتم
"مغتربون". في بلادي يقال لي "مغترب"، وهنا يقال لي
"أجنبي"، فقل لي بالله عليك ماذا أفعل؟
لم يكن سؤاله مما ينتظر جوابه.. ولذلك بقيت محافظاً
على صمتي. كنت أشعر أنني في قفص اتهام، وأني مدان،
وأن صاحبي سيقول لي في أي لحظة أنت تتحمل جزءاً مما
أنا فيه، وهكذا بقيت ملامحي كلها تنتظر اللحظة التي ينفجر
فيها صاحبي.

- عاد يتابع كلامه في انفعال حزين: أنت في بلادك..
إذا ضاقت بك الأرض توجهت إلى الجبل أو إلى الصحراء
وبقيت مع بعض الشويهات وانقطعت عن العالم.. من الذي
سيبحث عنك؟ لا أحد.. أنا وأشار إلى صدره، أنا لا أستطيع
فعل شيء بسبب كوني أجنبياً.

- سبحان الله.. بقيت أتأمل وجهه الأسمر ولحيته
البيضاء، كان في العقد الرابع، في أواسطه فيما يبدو لي،
وربما في آخره أو بداية الخامس.. وكنت أتعلم منه الكثير..
وأجد في صفاء نفسه صورة فريدة للماضي الجميل. ومع ذكره
للجبال عدت إلى موطني.. أحقاً يمكن أن أجد فيه
الاستقرار.. ولكنني تركته بحثاً عن رزقي، تماماً كما فعل

هو، الفرق بيني وبينه أنني لست بحاجة لكثير من الإجراءات التي يمر بها صاحبي حين يرغب في السفر.
أردت أن أشاركه في حزنه.. كنت أتمنى لو أستطيع فعل شيء من أجله، ليس مساعدة مني، ولكن لأن هذا واجب عليّ تجاهه.. إنه مكسب لا بد من المحافظة عليه. أفقت من تأملاتي على صوته.

- أتعلم أنني أتكفل بتذاكر الأولاد؟ إذا جاء أحد منهم أو جدت له أوراقه أو أي مصاريف تخصصهم فأنا وحدي من يدفع.. الشركة لا تدفع لهم شيئاً.. ولذلك فأني إجازة تعني الكثير بالنسبة لي.. واعتمدت على نسبة الأرباح في الشركة، ولكنها تتدهور. ماذا أفعل يا أخي؟

ظللت محافظاً على صمتي.. ثم رأيت أنه من اللائق أن أقول شيئاً.. ربما لا ينتظر مني جواب سؤاله، ولكنني بلا شك كنت مديناً له بشيء. ماهو؟ لا أدري، ولكن شعور الاتهام ظل مسيطراً على مشاعري فحاولت التملص.. قلت له بتلعثم:

- المهم أن تتأكد أنه ليس لي ذنب في هذا.
شعرت أن ردي ليس في محله، كان يبتسم في مرارة، ربما كان من المناسب أن أظل صامتاً.. وشعرت بالارتباك.
أشار إلي بيده، ثم مسح شعره وقال بنفس الإيقاع الحزين:

- لا عليك.. نحن نخدع أنفسنا ببعض العبارات،
"الأشقاء العرب"، "إخواننا العرب"، ولكن في الحقيقة
أنني أجنبي!
قال ذلك وأمسك بقميصه ورفع كانه يثقل عليه ويريد
التخلص منه.

لم أرد عليه.. ظللت أنظر لأصابعي وهي تفرع الطاولة
دون أن تحدث صوتاً ثم قطع عليّ تأملاتي:
- أتدري، قبل شهر زوجت ابنتي.. أردت العودة بزوجتي
وأولادي.. ضاقت الأمور قليلاً.. قالت لي زوجتي إلى متى؟
شعرت أنني تعبت وقتها.

أحسست به في تلك اللحظة.. ربما أكون قد مررت
ببعض الظروف المشابهة ولذلك فهمته.
- إلى متى؟، إلى متى؟ ألقى برأسه إلى الخلف وأخذ
يراقب السقف.

قطع كلامه رنين الجوال.. تأمل قليلاً في الرقم، ثم رد
على المتصل في مرح.. كلمات بسيطة أنهى بعدها المكالمة
وحاول أن يسألني عن أمور حياتي.
عاد للوقوف ثانية، ونظر إلى الخريطة المعلقة خلفه
وأشار بحركة عشوائية.. احتوت حركته الخارطة كلها. لم يقل
شيئاً.. تعبيره هذا أبلغ من قوله.
تمنيت أن أقف وأعانقه، شعرت بقربه، حاولت أن أعبر،

خانني تعبيرى.. لم أجد عبارة تناسب شموخه.. عظيم أنت يا
أخي. عظيم أنت. ابتسمت له رد عليّ بابتسامته المشرقة.
ضرب فخذه وقال:
-هيا بنا، قم بنا لتتناول الغداء معاً.

فاصل

عودة الطائر..

اليوم الخميس.. الساعة العاشرة ليلاً.
قطرات المطر تلمع تحت أضواء المصاييح العتيقة.. وقلب
منكسر يسير وحيداً.. يعبر فوق الجسر الخشبي ويقف لينظر
إلى النهر ويتأمل.. القمر يتكسر على الأمواج والمطر يفسد
سكون الماء.. وتحت قطرات العاصفة الوليدة يمضي يتجرع
همومه.

هل كان يتوقع أن يرحل عنه الجميع إذا كبر ليتركوه
يواجه الحياة وحده في سنيّ شيخوخته؟.. هل تصور أن قلوب
من وهبهم قلبه ستقسو عليه.. تتخلى عنه وقت حاجته؟.. هل
خطر بباله أنه سيعود وحيداً بعد أن كان لديه بيت وأسرة؟
أفاق من تأملاته على صدى خطوات تعبر الجسر.. لم
يلتفت إلى القادم.. تلاشت الخطوات مع قطرات المطر..
وعاد إلى تأمله.. السكون والحنين وضوء مصباح يتمايل
ليشعره بالوحشة أكثر.. في هذه البقعة البعيدة عن المدينة ترك
مكانه على الجسر وتوجه إلى الغابة.. هناك حيث قرر أن
يقضي بقية أيامه في هذه الحياة ولن يرافقه أحد في بقية

أيامه .

بدأ يعتاد على حياته الجديدة.. خروف ونعجة.. وبعض
دجاجات توفر له البيض.. وكلب حراسة قوي ووفي.. ومنزل
صغير وسط مساحة خضراء.. يمر بجوارها جدول صغير..
وأشجار متناثرة تزيد من عزلة المنطقة.. وكأنها تساعد الرجل
في بعده عن الناس وبقائه وحيداً.

- أوه لماذا تنبح يا قمر؟ ماذا وجدت هناك..

جرى حيث وقف كلبه يتأمل في الأرض ويشم كأنه يريد

لفت الانتباه لشيء.

- أوه.. طائر جريح.

رفع الرجل الطائر الخائف.. وتأمل في جناحه..

- إنه مكسور لنحاول أن نعمل شيئاً من أجله.. يبدو لي

أنه قوي وهذا سيساعد على شفائه.

توجهها إلى المنزل الصغير وبدأ في عمل جيرة للطائر.

- والآن يا صغيري.. سأسميك غريب.. وسيكون هذا

الاسم لك مادمت ضيفي في هذا المكان..

ثم أدار ظهره والتفت.. ولكنه عاد إلى الطائر وهمس

بحزن..

- بل أنا ضيفك.. أنت صاحب المكان الأصلي.. أما

أنا...!

وترقرقت دمة مسحها بكمه.. وخرج من المنزل.

- هيا يا قمر.. لا بد أن ننهي واجباتنا هذا اليوم.. لا تخف على غريب سيكون بخير.
الأيام تمضي سريعة.. وغريب يتمثل للشفاء في تقدم ملحوظ.

- والآن يا صغيري.. يمكنك أن تطير خارج المنزل.. وستعود إلى عالمك الفضائي الواسع.
- تعال يا قمر سنودع صديقنا..
جرى الكلب خلفه وهو يثب فرحاً.
وفي وسط الباحة المحيطة بالمنزل وقف الرجل ومعه الطائر.. بسط كفه.. وابتسم وهو يشير إلى الطائر المحلق.
الحمى تشتد.. والليل يطول.. وهذه الغربة لا ترحم ضعفه.. وقمر قريب من صاحبه يئن لأنينه.. ويقرب ليدفئه بجسمه في ليالي الشتاء الباردة.. والسحب تحجب القمر وعوي ذئب بعيد.. وأصوات الرياح تحرك الأشجار.. وصوت خافت ينادي.. ابني.
أشرقت شمس النهار حاملة الدفء والسعادة.. واستيقظ الرجل يربت على ظهر صديقه وابتسم له..
- كانت ليلة قاسية أليس كذلك؟
اكتفى الكلب بصوت يدل على الألم.
- لقد شعرت بك بجانبني.. ها نحن يا قمر غريبان في هذه الغابة.

رد الكلب بنباح.

ضحك الرجل..

- لا تحب أن تشعر بالغرابة.. نعم أنت محق.. هذا
عالمك أنت أيضاً.. لا يمكن أن تكون أنا.. على كل حال
نحن متفقان.. لكل منا عالمه.. هيا بنا لنحضر الماء.
هل نجد صور الوفاء في كائنات لا تعقل؟ هل نراها
انتهت من حياتنا؟
قطع ابتسامته صوت أجنحة فوق رأسه.. رفع رأسه
وابتسم..

- هذا أنت يا غريب.

نبح الكلب في سعادة.

- لقد تذكرتني ولم ترحل.. إذاً يا غريب عرفت مكان
عشك. قالها مبتسماً.

مرت الأيام هادئة.. وفي زاوية المساحة الخضراء رقد
جثمان الرجل.. وقريباً من قبره وجدت بقايا لجثة كلب
ضخم.. آثر أن يموت فوق قبر صاحبه.. وفي المنزل عش
صغير يحوي رفات طائر.

هذا كل ما بقي لجيل من الغرباء.. رحلوا عن كل شيء..
ليجدوا الوفاء في مساحة من الغابة.



فاصل

أرقام..

لم تكن تفهم شيئاً من تلك الأرقام المكتوبة على المرأة.. وكان هذا الأمر يزعجها كثيراً فقد تعودت أن تقرأ كل صغيرة وكبيرة في ذهن رفيق دربها، لكنها أمام مجموعة الأرقام التي كتبت بالكحل الأسود على مرآة غرفة النوم شعرت بالعجز عن فهم حبيها.

كانت الأرقام تزداد يوماً بعد يوم.. وكلما واجهته بسؤال عنها يكتفي بابتسامة ثم يغير الموضوع ولا يعطيها فرصة للعودة إليه.. وهكذا تجد نفسها في النهاية وقد خرجت من معركتها بابتسامة يمكن أن تكتسبها في كل مرة فمن عادته.. أن يحدثها وهو مبتسم.

هذه المرة شعرت بتأزم الأمر.. إذ وجدته بدأ في العمود الخامس من الأرقام المتسلسلة.. كانت تعلم أن كل رقم منها يعني يوماً من حياته فتسجيل الأرقام الجديدة هي أولى مهامه في الصباح إذ يمسك بقلم الكحل ويسجل رقماً قبل أن يغادر البيت متوجهاً إلى مكتبه.. ومع حرصه على تجنب الأمور التي تزعجها إلا أنه كان يصر على هذه العادة حتى امتدت خطوط

الأرقام لتشكل أربعة خطوط بطول المرأة وخطاً بدأ في الظهور هذا الصباح ليكمل مشوار الغموض الذي بدأ وعجزت عن التعرف على معالمة.

قررت هذا اليوم أن تفتحه في الأمر مرة أخرى، ولكنها لن تعطيه فرصة للصمت ككل مرة.. بل لابد من معرفة هوية الأرقام ولكنها قررت أيضاً أن تهئ نفسها.. فهي تعرفه قوي الحجة إذا أراد النقاش.. وهذا هو سبب بقائها منذ أن استيقظت في مواجهة المرأة تحاول التفكير في الأرقام.

قطع تفكيرها صوت الهاتف لكن سرعان ما عادت إلى التفكير والتأمل في الهاتف الملقى بجانب السرير.. ترى هل هناك علاقة بين الأرقام على المرأة وبين أرقام المصاريف المتنوعة؟ الفواتير وما شابهها. ولكنها استبعدت هذا الخاطر لأنه لم يفكر من قبل في تدوين هذه الأشياء، وبالرغم من تكاسلها وعدم رغبتها في الحديث إلا أن الرنين المتواصل جعلها ترفع الهاتف لتنهي ذلك الإزعاج.. جاءها صوت صديقتها وقريبة زوجها ندى التي تعرف الكثير من عادات زوجها وعاداتها وربما تساعدها في التفكير.

وصلها الصوت مبتسماً كعادته:

- كيف أصبحت أيتها الكسولة؟

- بخير والله الحمد.. ليس كسلاً أنا مستيقظة من الصباح

ولكنني أفكر.

- فيم، يبدو أنه أمر مهم!!.
- أفكر في عبد اللطيف.
- ماذا به؟
- اسمعي سأقول لك شيئاً وحاولي التفكير معي ولكن لا تخبري أحداً.
- منذ بضعة أشهر بدأ عبد اللطيف في تسجيل أرقام على مرآة غرفة النوم.
- أرقام ماذا؟
- لا أدري.. وهذا هو سبب التفكير.. أريد معرفة سر تلك الأرقام.
- ربما كانت أرقام هاتف مهمة أو غير ذلك.
- لا.. فالأرقام أرقام تسلسلية.. بمعنى أنه بدأ من الرقم واحد واستمر الأمر وهذا الصباح وصل إلى الرقم 145.
- غريب.. ما معنى هذا؟
- نعم غريب وهذا ما يحيرني. فهو يسجل كل يوم رقماً واحداً فقط.
- هل سألته؟
- نعم.. سألته ولكنه اكتفى بابتسامة وهذه عادته إذا حدثته عن الأرقام.. وبعد ذلك يغير مجرى الحديث.
- هل هناك أي تصور في ذهنك عنها؟
- في الحقيقة لا.. ومما زاد فضولي حرصه على المتابعة.

- ضحكت ندى ثم قالت :
- تخشين من وجود امرأة أخرى.
 - لا أبداً.. عبد اللطيف ليس من النوع الذي يفكر بهذه الطريقة.
 - تعجبي هذه الثقة.. ستريحك كثيراً.
 - في الحقيقة يا ندى هو رجل مثالي في تصوري..
 - يطلعني على كل أموره.. يشاورني في كل شيء.. إلا أنه في هذا الأمر لم يخبرني أي شيء من شأنه أن يساعدي.
 - غريب فعلاً.
 - نعم غريب.. أستطيع أن أقول إنني أفكر في أفكاره قبل أن يفكر هو فيها.. ولكن الأرقام...
 - وندت عنها صيحة أشعرت صديقتها بمدى ضيقها وانشغال تفكيرها.
 - وماذا قررت؟
 - أريد الحديث معه.. هل توصلت لشيء بخصوص الأرقام؟
 - في الحقيقة يا غيداء لا.. ظننت أن الأمر سيكون سهلاً.. ولكن أحتاج لوقت كي أفكر.
 - حسناً يمكنك أن تفكري، ولكنني لن أنتظر بل سأفاتحه اليوم في هذا الأمر.
 - جيد.. ولتحذري أن تغضبيه.. وإن أثر الصمت

فلتحترمي رغبته.. حتى لا يحدث بينكما مشاكل.

- لن يحدث شيء بإذن الله.

ثم دار حديث بسيط بين الصديقتين عن الأطفال والمنزل والأسرة التي سيعقد اجتماعها السنوي قريباً والمواضيع التي ستطرح في الاجتماع.

انتهت المكالمة، عادت غيداء إلى مكانها أمام المرأة وبقيت تفكر، ثم قامت بهدوء إلى الهاتف وأدارت رقم عبد اللطيف.

وصلها صوته السعيد:

- أهلاً حبيبي.

- مرحباً حبيبي.. هل ستذهب إلى أي مكان بعد عملك؟

- لا.. سأعود إلى البيت كالعادة.. هل تريد شيئاً؟

- أممم... أفكر أن أدعوك لتناول الغداء في الخارج.

- وأنا موافق.. وبعد ذلك يمكن أن نتوجه إلى البحر

لنكمل اليوم.. مارأيك؟

- ممتاز.. إذا سأهين أغراض الرحلة.

- اتفقنا..

وصلتها ضحكته ثم تابع:

-ولكن أنا لا أقبل بأي مكان.. أريد مكاناً فخماً.

ابتسمت له ووعدته بمكان يعجبه ثم أغلقت السماعة

وبدأت في ترتيب الأغراض.

وصل عبد اللطيف في موعده.. ووجدها تنتظره ولم
يضيعا وقتهما بل توجهها مباشرة إلى مطعم صغير يقع على
الكورنيش.. كانا قد زاراه من قبل ومع وجود منظر البحر
شعرت بأن الجو مهيباً لكي تفتحه في الأمر.

- عبد اللطيف.

- يا عيونه!

- أريد أن أسألك عن الأرقام.

ابتسم لها وساد الصمت.. ثم رفع رأسه ونظر إليها:

- لماذا تشغلك؟

- لأنها أمر محير فعلاً.. لقد حاولت معرفتها ولكن...

- ولكن انسيها فهي ليست مهمة لأحد سواي.

- ما يهملك يهمني.

بدا على وجهه أن يفكر في كلامها.. وتركته فهي تعرف

أنه يمكن أن يخبرها إذا شعر بالرغبة في ذلك. ثم سألها:

- هل ترين أنها أفسدت حياتنا؟

- لا..لا.. لم أقصد ذلك.. ولكن لا أحب أن أشعر

بوجود أسرار في حياتنا.

- اسمعي غيداء.. لن تصدقيني إذا بحت لك بسرها.

- أعلم أنك لا تكذب.. قل وسأصدقك.

بدا عليه التردد.. ثم قال:

- حسناً ولكن لا تناقشيني في الموضوع أبداً..اتفقنا؟

شعرت بالسعادة وقالت :

- اتفقنا.

- منذ فترة حصل بيني وبين أحد الزملاء موقفٌ أزعجني.. وهذا الأمر طبيعي يمر بنا كثيراً.. ولكن المشكلة هي أنني لا أملك ما أَدافع به عن نفسي.. ولذلك شعرت بالظلم.. ولأنني متعود على تجاوز هذه الأمور فقد قررت أن أصمت.

- ثم؟

- لا شيء.. ثم بعد ذلك بدأت أسجل الأيام التي مرت على هذه الحادثة؟

- لماذا؟

رفع رأسه ونظر إليها.. كانت نظرتَه بعيدة شعرت أن صاحبها لم يعد في العالم معها. ثم قال:
- لأنني أريد أن أذكر نفسي أنني ظُلمت.
- عبد اللطيف.. أنت لا تحقد على أحد.
- ليس حقداً.. ولكن هذا الأمر سيبقيني بعيداً عن الناس.. لست في حاجة إليهم.
حاولت أن تتابع النقاش.. ولكنه ابتسم لها ثم قال..
- لاتنسي اتفاقنا.
ابتسمت وصمتت.. ولكنها في نفسها كانت تفكر.. أي قسوة هذه هي التي جعلت عبد اللطيف يفكر هكذا.. لا بد أنه

جرح جرحاً بليغاً.. كم هي الأمور التي نخسرها في حياتنا
بقسوتنا على من حولنا.
انتهى الكلام في الأرقام.. وعادا يتحدثان عن أمور
حياتهما.. كانت تعلم أن الأيام ستنسيه.. أو على الأقل لن
يبقى في نفسه شيء.. ولكنها تعلم أن هذا الجرح سيظل ينزف
في قلبه الرقيق.. وتعلم أيضاً أنه سينسحب من جرحه إلا أنه
سيرحل بعيداً.. بعيداً عن دنيا البشر.



فاصل

كفاح..

لا أدري لماذا شعرت بالرعب عندما فكرت في الكتابة..
ربما لأنني أراه في كل سطر من سطور قصتي.. ومع أنني
لست بكاتب.. إلا أنني أشعر بالكلام يتدفق على الورق..
خياله المنكسر يرافقني في منامي.. وصورته أبصرها في كل
شيء حولي.. من الذي عاش في الأيام ومن الذي عاشت
الأيام فيه؟ الرجل المتعب الباسم.. ونظرته البراقة.. ترفعني
من عالمي لتقذفني في الظلام.. أرتطم بكل شيء في الوجود..
أشعر أنها سياط تلهب أضلعي.. وكأنني لست سوى فرد من
عصابة تأمرت على قتله.. ومع كل شهقة من أطفاله.. أشعر
بتمزق روحي من الداخل.

عادة ما تبقى بعض المواقف في صدورنا لا ننساها..
ويبقى أحياناً بعض الأفراد في خيالنا لا يبتعدون.. تضرب
جذورهم في أعماق الذكريات.. وكلما قلبنا صفحة من سجلها
نراهم في كلماتها وبين أسطرها.
منزل الطين الصغير.. والشارع الترابي.. والليالي الباردة..
والابتسامات الكسيرة.. والأرواح السعيدة أو الحزينة.. كلها

تمثل سعيد.. رجل الأربعين المكافح.. بابتسامته البسيطة..
ونظرته الغامضة.. سألت أبي عن قصته.. أخبرني أنه سكن
الحي منذ فترة طويلة.. منذ أن كان شاباً.. وعلمت من أبي أن
الابتسامه ليست شيئاً جديداً عليه فقد عرف بها منذ القديم.
عرفت العم سعيد منذ أن كنت طفلاً.. صوته يخترق ظلام
الليل في ساعات السحر وهو يذكر الله ولحيته سوداء، قليل
فيها الشيب.. ونوع من الرضا تشعر به إذا رأيته أو سمعته
يتكلم.. كيف؟.. لا أدري، ولكن كنت أشعر برضاه في كل
شيء أراه فيه.

وأما العمه شريفة فهي نموذج لامرأة القرية.. المرأة
الصابرة المطيعة.. التي لم تعرف من الرجال إلا محرمًا..
وعاملت الناس بطيب قلبها.. وصفاء فطرتها.
لكنني أذكر أن جانباً كان غامضاً على الناس.. غريباً عليّ
لم أميزه في تلك السن.. وعرفته الآن.. مرض العمه شريفة..
وتوقفها عن الإنجاب.. وخروج العم سعيد في الليالي الباردة
الماطرة.. يحمل كيساً على ظهره، ومظلة يحتمي بها من
المطر.

كنت صغيراً يثيرني كل شيء لأتبعه.. ماذا يريد.. وبين
الشوارع الضيقة رأيته يطرق أبواباً مظلمة.. يسمع من خلفها
بكاء الأطفال ليضع في كل بيت شيئاً يخرج من كيسه..
وينصرف وهو ملثم.. والدعاء يرتفع له من الأفواه الكثيرة

المزدحمة على الباب الأسود.
سمعت أن عم سعيد سيسافر.. هل يعني سفره ذهاب عبد
الله وعبد الرحمن؟
هل سأفتقدهم فلا أراهم ثانية؟
لا أدري.. ولكنني نسيت كما نسي الجميع أمرهم..
وغاب عنا وطويت صفحة كما طويت صفحات.. ولم يبق لنا
سوى الذكريات الباهتة.. وصورة بيت طين قريب من بيوت
الحي الكبيرة..
لم أتوقع أن تمر الليالي سريعة هكذا.. ولكن هذا هو
شأنها إذا لم تكن تحمل همماً أو ألماً.. فوجئت بالساكن
الجديد للحي.. الأعوام الخمسة عشر غيرت في الناس
الكثير.. ولم أعرفه، وبدا أنه لم يعرفني.. ولكن همساً سرى
في الحي يقول إن هذا الرجل هو صديق قديم.
كان هو زميل الطفولة.. هو عبد الرحمن ابن العم سعيد..
وسرعان ما شعرت بالأنس معه ولكنني لاحظت أنه كان دائم
الحزن كثير الشرود.. لم يكن يشير للأسرة أبداً.. ولم أكن
أجرؤ على القرب منه لأسأله بعدما شعرت بصمته حول هذا
الموضوع.. ولم يكن يقترب من الناس كثيراً إذا استثنيت
نفسي وجارنا القديم عمر.
علمت من أمي بسر القصة كلها.. كان مرض العم شريفة
هو بداية النهاية.. تكاليف العلاج الباهظة أتعبت الرجل، فقدم

كل ما لديه.. ولما ضاق به الحال استدان من أبي الذي وقف بجواره بحكم العلاقة القوية بينهما.. ولكن لم يحاول أي إنسان أن يساعده.. وماتت العمّة شريفة.. لم يطق البقاء بعد رحيلها فكانت قصة السفر.. وانتقل إلى مكان آخر لا يعرف فيه أحداً.. وهناك لم يهمله المرض بعد وفاة شريكة الحياة.. فعانى قليلاً ثم لحق بها.. وبقي ولداه مع قريب لهما حاول أن يوفر لهما ما يحتاجانه.. ويريد الله أن تقبض روح عبد الله ليقى عبد الرحمن وحيداً لا أخ له.

علمت بهذه التفاصيل متأخراً.. ولكنني عدت لتلك الليالي الباردة.. والنظرة الساهمة والقلوب الصادقة.. وتخليتهم رحلة المعاناة مع المرض والجوع.. ومع كل همسة كنت أذرف دمعة لا أدري ستكون كافية لكي يسامحوني أم أنهم يفضلون الرحيل تاركين لنا البسمات الدموع؟

البعض يكافح ليعيش.. والبعض لا يفهم من معاني الكفاح إلا ثورات الصغار في عالم يلتهمه الكبار.. وبين مكافح يتعذب.. ومعذب يبتسم.. تظهر نماذج تؤثر الموت الطاهر على الحياة المتسخة.. من قلوبهم تنبض الحياة.. ومن مأساتهم ترتوي الدموع.. وفي عالمهم الكبير، لن تكفي مشاعر الأرقام. ستبقى صورة العم سعيد بالرغم من اتساع الحي وكثرة العمران.. وسنبقى نفتش في أعماقنا عن الإنسان النابض.. ومهما أتقنا الكلام، فلن نؤثر إلا بعمل نقدمه

لأمتنا.. ولهؤلاء الأَطهار، نقف كالصغار نتعلم من شموخهم..
ونهدي إليهم تميّز بلون.

فاصل

قبور الياسمين..

أخي.. أسمع صوت قلبي وهو ينبض، كأنه يقول لي انتبه
لا تكتب.. صوت المطر في الخارج يصلني ضعيفاً.. ربما
لانشغالي بك.. الليل ووحشته وأصوات الذئب بعيدة في
الغابات.. وأنا وشمعتي ننتظر مجيئك.

على الضوء الأصفر الباهت المتراقص أتذكرك.. تأخرت
كثيراً.. انتظرتك اليوم كما هي عادتي في كل يوم.. ولما جاء
الليل بقيت ككل ليلة أراقب الشمعة وأنتظرك.

يقولون إن الإنسان إذا دنا أجله تمر عليه الذكريات
كومضات.. أنا أتذكر الليلة فهل سأموت؟

غريبة هي كلمة الموت.. انتظرتها كثيراً وبحثت عنها..
لكنني لم أصادفها. أشعر بالبرد بالرغم من النار الملتهبة..
أندفاً.. أنظر من النافذة المغلقة إلى الشارع عليّ أراك.. بدأ
الثلج بالتساقط.. إذاً هذا هو الشتاء الطويل.. وأنا وحيد.
الوحدة ليست شيئاً جديداً في حياتي.. ولكنها الآن مختلفة..
هذه المرة أشعر بمرارتها تقطع قلبي.. كنت وحيداً دائماً..
ومن عجب أن يختلف الأمر.. هذه الليلة أعود لطاولتي

المُهترئة.. أراقب الشمعة، وأقرر الكتابة. أخرجت من حقيبتني ما بقي من أوراق.. أحاطب هذه الحقيبة وكأنها تعقل ما أقول.. كيف لا وهي الوحيدة التي رافقتني في سفري.. صورة جديدة من صور العشق.. تنام في حضني.. وتحفظ سري.. وتسير بدربي.

ماذا سأكتب لك.. دعني أحدثك قصة أسفاري بحثاً عنك.. وانتظاري لك بالرغم مما قالوه عنك.. أتدري ماذا قالوا؟ قالوا إنك مت.. أتصدق ذلك؟!.. أعلم أنك حي، ولكنهم يريدونني أن أنساك.. وهل ينسى المرء نفسه؟

خرجت وحيداً من قريتنا.. وقررت الاستقرار في منطقة نائية.. قلبي يحدثني أنك ستصلني.. كان كل شيء حولي غريباً.. لم أعود على السفر، ولهذا تعجبت كثيراً مما رأيت. تعبت في البحث عن مكان مناسب.. كل الأماكن هنا مزدحمة.. وأعلم أنك تحب الوحدة.. وأنا كذلك لا أريد البقاء قريباً من الناس.. وقليلة هي الخدمات التي نحتاجها.. ولهذا تعبت كثيراً.

أخيراً وجدت مكاناً مناسباً، أو هذا على الأقل ما ظهر لي.. اشتريت قطعة أرض وأصلحتها.. كان فيها كوخ قديم تأكل خشبه في بعض جوانبه.. لاضير.. يمكنني إصلاحه على أي حال.. كنت أفكر فيك فقط.. قالت لي أمي إنك رحلت. كانت تبكي كثيراً.. أشك أحياناً في كل شيء حولي.. ترى

أين أنت الآن؟ أشعر بالجوع.. ومع صوت المطر يهاجمني
النعاس بين فترة وأخرى.

قمت توضأت واصلت.. ثم تمددت في فراشي ولم أشعر
بشيء من شدة التعب. كنت أتذكر بدايات رحيلي.. قضيت
بعض الأيام في سيارتي.. لم أنم فيها جيداً.. ربما كنت أوهم
نفسي بهذا الشيء ولكنني حقيقة لم أشعر بالراحة.. زرت كل
مكان كنا نزوره معاً قبل أن تسافر.. ومع إشراقه شمس كل
يوم كنت أبحث عن مكان يعجبك لأستقر فيه وأنتظر.

في النهار أسير في الشوارع وأصعد الجبال.. وفي الليل
يختلف حالي قليلاً.. فالبقاء جوار البحر أو في مكان بعيد
عن الناس يريحني أكثر.. وتأمل المساحات الخضراء والزرقاء
يشعرنني بقربك مني.. أتذكر؟؟ هكذا كنا دائماً.. ما زلت
أحتفظ بكل ذكرياتك.. وستبقى معي حتى تعود.. أتأمل في
البحر أحياناً، أتساءل هل ستأتي من هنا؟ هل يخبئ لي
الموج الأزرق مفاجأة؟ ومع هديره أشعر بقشعريرة تسري في
جسدي.. ترى هل يحسن هذا الهدير زرع البسمة على الشفاه؟
لقد تغيرت كثيراً بعد رحيلك.. هكذا قالت أمي.. حتى
الوزن الزائد الذي كنت تنتقده فيّ قد تغير.. لقد ذبلت كثيراً
من أجلك.. فقط ارجع وسأحقق لك ما تريد.. أحياناً أتصل
ببعض أصدقائك.. لا أسأل عنك.. ولكنني أحب سماع
أخبارهم.. وانتظر في كل مكالمة أن يقول لي أحدهم أي خبر

عن عودتك.. أتدري يا أخي لا أحد يعرف مكاني هنا غير أمي.. طلبت منها أن تأتي معي.. بيد أنها تريد أن تعيش هناك.. في المنزل الذي عاشت فيه عمرها كله بحلوه ومره.. ومع قربي منها، إلا أنني أشعر أنك كنت أقرب منا جميعاً لقلبها. جميل أن يعترف الإنسان بأمور كان يكابر ويأبى الاعتراف بها من قبل.. ومع أنها بكت كثيراً يوم رحيلك.. إلا أنها ودعتني في صمت.. وابتسمت لي وهي تقول:

- ابق على اتصال...! أتدري عظيمة هي أمانة.. وقفت

أمامها يوم سفري.. قبلتها ثم قلت لها:

- حان الرحيل..!

... سكتت ولم تجبني.

- لا تنسيني من الدعاء..

ابتسمت لي وهمست..

- انتبه لنفسك.

- أعدك ببذل جهدي.

- نظرت إلى أختي الصغيرة، دمعة في عيناها.. ابتسمت

لها.

- هل سترجع؟

- بالتأكيد.. لكن لا أستطيع أن أعد بذلك.

- قال أخي: لا تحمل همنا هنا.. لن نحتاج لشيء.. فقط

خذ إجازة وحين تهدأ نفسيتك عد إلينا ثانية.

- ابتسمت له.. لا أحب أن يقول لي مثل هذا الكلام..
أنا بخير فقط أنا أنتظر عودتك.. لماذا يظنون أنك مت؟
- قالت أختي: سنكون في انتظارك.
- وردت أمي اهتم بنفسك وابق على اتصال. ضمتني،
قبلت رأسها، قبلت أخواتي وإخواني وانطلقت.
أتدري يا أخي.. أفكر أحياناً أن ما قاله الطبيب صحيح.
وأنت سترحل عنا.. بل يبدو لي أنك رحلت حقيقة.. ولكن
أحب أن أعيش على أمل.. فإن عجزت عن ذلك فعلى ذكرى
سعيدة لأيام عشناها معاً.. ويرافقني في حياتي الجديدة أوراق
وحقيقتي الصغيرة.. أتذكرها؟
لقد كنت تسخر مني حين أحملها.. وكنت تضحك حين
تراني أخاطبها.. ومع ذلك لم أكن أهتم.. أعلم أنها لا
تسمعني. ولكنني أحب أن أكون وحيداً وقريباً من نفسي..
أحب أن أفكر وأتأمل في كل شيء حولي.

(2)

أتدري من أنا؟! أنت لا تعرفني.. وأنا لا أعرفك ولكن لا تدري ربما نلتقي لأكمل معك المسير.. نزل قريباً من قريتنا رجل غامض.. لا يتكلم مع أحد، يعيش وحيداً في منزل في أطراف الغابة، قرب الجبل.. كانت القرية كلها تعجب من صمته، لا يحتك بأحد ويبدو عليه أثر العز.. رأيتُه عدة مرات فكنت أتأمل في وجهه لأرى عليه سمات الحزن.. ولكن ذلك النوع الراقى من الحزن.. تشعر بحزنه وأنفته.. وإذا كلمه أحد ابتسم وأجاب باقتضاب وهدوء ثم يتركنا ويرجع للغابة.. كان غريباً عنا، لم يكن يأتي إلى القرية إلا للضرورة.. بدا لي أنه يهرب من الناس ويأوي إلى كوخه الصغير عند الجبل.

في قريتي الصغيرة لا يسكن غريب غيره.. حتى مدرستنا الوحيدة يدرّس فيها أبناء القرية.. وكنا ننسج القصص حول مجيء هذا الرجل.. فتارة نصوره كهارب من القانون لجأ إلى هذا الجبل وهذه الغابة وأعجبته هذه القرية الصغيرة الهادئة.. وتارة نقول إنه تاجر خاسر هارب من دائنيه.. وتارة يأخذنا الخيال إلى قصة حب رومانسية عاش أحداثها وهو شاب ثم

كسر قلبه وخسر من أحب فهرب بأشلاء قلبه وبقايا ذكرياته
وأوى إلى مساحة صغيرة من الأرض تمثل في قلبه ذات
المساحة التي بقيت له في قلوب من عرفوه.

في هذه الغرفة أخي أرى موقداً.. وطاوله مهترئة.. وبقايا
شموع.. وحقيبة خضراء.. هي بقايا أخيك الذي طالما أنتظر
مجيئك.. عرفت الآن ماذا كان أخوك ينتظر، كان ينتظر عودة
الأيام.. ويتربص معيئك.

شعرت بوحدتي بدونك.. واتحادي بروح أخيك.. هكذا
رحل ذلك الرجل الغامض.. افتقدته فتجرات واقتربت من
كوخه.. كان الكوخ ساكناً لا أثر للحياة فيه.. شعرت
بالوحشة.. اقتربت أكثر، سلمت ولم يرد علي أحد.. السماء
تنذر بعاصفة ثلجية أخرى.. اقتربت من البيت أكثر.. رأيت
الباب مفتوحاً، تجمد الماء عند المدخل فلم يقفل.. فتحت
الباب فلم أر شيئاً.. كان الكوخ مظلماً..

تعودت عيناى على الظلمة.. وهناك رأيت أخاك.. كان
واضعاً رأسه على الطاولة القديمة ومعه قصاصة الأوراق التي
بين يديك.. ذهب كل الخوف مني.. وشعرت أنني أمام وداع
صامت.. اقتربت منه، وضعت يدي على كتفه لم يتحرك، كان
معانقاً لشيء ما.. نظرت إلى ما ضمه إلى صدره فرأيت
الحقيقية الخضراء.. صورة من الحب غريبة.. ابتسامة مشرقة
ونظرة جميلة.. ونور وسرور.. هذا ما رأيته في أخيك.

من خلال المذكرات التي بين يديه عرفت قصتك.. ربما تكون ميتاً كما قال الآخرون.. ولكنك كنت حياً في نفس أخيك.. وكنت قريباً منه في كل لحظة عاشها في غربته.. ملأت عليه عالمه فلم يبحث عن غيرك ليملاًه.. كان موتك صدمة أكبر من أن يحتملها قلبه.. فعاش على ذكراك وكأنك حي.. ومن خلال حياته رأيتك حياً فأثرت العيش معك.

الموت ليس بالأمر النسبي.. ولكن قدرتنا على التعامل معه هي الأمر النسبي.. ومع كل ذلك فإن محبتنا لبعض من حولنا لا تمنعنا من العيش مع ذكرياتهم إذا عجزنا عن العيش معهم.. وفي قصة أخيك دليل على ذلك.. لم يسبق لي أن تحدثت معه.. ولكنني أرى هنا حياة مشتركة رسمها ذلك الغريب.. ومع وحدة في كوخه بأسفل الجبل إلا أنني أشعر بأنك كنت هنا ورحلت وستعود قريباً.

حبات العرق تتجمد على جبهتي.. ومع برودة الجليد أشعر بدفء عاطفة حملتها لي الأنسام.. وكأنها تثبتني فتقول لست في عالم المادة.. بل رحلت إلى عالم الروح.. وهأنذا أعيش معك كما عاش أخوك من قبل.. في قلبي شوق يملأ عليّ حياتي.. وعلى الطاولة المهترئة بقايا أوراق هي قطعة مني.. وعلى لهب الشمعة المتراقص أسجل رسائلي لك لا أدري لتقرأها أنت، أم سيقروها عابر سبيل آخر يرى في الكوخ جنته.. وفي الأوراق قصته.. فيكمل ما بدأناه.. ويروي

لنفسه ما روينا.

في هذه البقعة تشرق شمس لا أراها كغيرها.. بل أحس
اختلافها كاختلاف هذه الأرض .. الأرواح هنا يا أخي تنتظر
بشوق.. وترحل في صمت.. فهي بين شوق للقاء من تحب..
وصمت في وداع كل شيء وكأنها تسرع للقاء من أحبت في
عالم آخر.

أخي.. سأكمل المسير بعده في نفس الكوخ الذي بدأ فيه
رحلته.. عاش غريباً، ومات وحيداً.. في وفاء وشوق وحنين..
اليوم أقرأ قصته وأعيد قراءتها.. أنقشها في أشجار الغابة
وأحفرها على صخور الجبل.. أروي بقصته الأنفس كما تروي
الأراضي.. في الصباح أخي أخرج من الكوخ.. أصعد الجبل
لمكان قد أعده.. أرقب مجيئك وأنظر إلى الطريق.. هل ستأتي
اليوم؟

سأكمل القصة أخي.. قصة الحب والوفاء.. قصة الغرباء
الأحرار.. من يدري ربما يأتي اليوم الذي تزور الكوخ لتراني
أضم الحقيبة أنتظر مجيئك.. دُفن أخوك قريباً من المكان
الذي حفره.. فإن وجدته ميتاً فاحفر لي قبراً بقربه.. وستنمو
على قبورنا زهور الياسمين.

فاصل

الزهرة..

رفع الدكتور إبراهيم عينيه ونظر إليها وابتسم.. وأخذ يحدث نفسه.. امرأة ستينية أرملة تسمى "زهرة" .. نعم ربما كانت زهرة ولكنها ذبلت الآن وألقيت فلم نعد نرى جمالها أو نشم أريجها.. وبهدوء خاطبها قائلاً: تفضلي يا أماه لكي نكمل البيانات.

وأخذ إبراهيم يفكر.. ألا يكفي أنها ذابلة لكي تحيا بعيداً عن بستانها؟ ومع حبه الشديد للورود إلا أنه شعر أن كل الياسمين، النرجس، الجوري، الزنبق، البنفسج.. وغيرها وغيرها لم تعد تحمل أي شيء من صفاتها بعد رؤيته "الزهرة".

زهرة.. الناظر إليها يرى في وجهها تجاعيد الثمانين وإن كانت حقيقة لم تتجاوز الستين.. تشعر بسطحيتها وحزنها.. وترى في تقاسيم وجهها قسوة الحوادث.. وغربة الأيام. نظرت إلى إبراهيم والإعياء باد على محياها وأشارت إليه بيدها.. بألم تترجمه عيناها.. فابتسم لها..
-لا عليك يا أماه ستكونين بخير.. هذا التعب لن يكون

مشكلة بإذن الله.. وستظهر النتائج الآن. كان يعلم أنه يخفي الحقيقة بهذا الكلام.. وأن حالتها متأخرة جداً.. ويبدو أنها أيضاً كانت تعلم.. فالسرطان يمزق صدرها.. وربما لو تأخرت أكثر في المجيء لماتت دون أن يعلم عنها أحد.

عاد يتأمل في وجهها دون أن تشعر.. بلا شك قد كانت زهرة.. تتسابق الأيدي لقطفها.. لكنها الآن . شوكة.. أو هكذا يراها البعض.. كانت تحاط وترعى لكي لا يعيث بها أحد.. ولكي تكون فاتنة أكثر في أسوار من العفاف وحراسة من المبادئ.. وباتت ملقاة على عتبات السنين.. حقا هذا هو خريف العمر.

فكر في أننا كلنا كذلك.. زهور.. لكن إلى متى؟.. ومتى ستأتي النهاية؟.. وأي زهرة أو شوكة نكون؟.. وهل نقدم الآن ما يضمن لنا الحماية لاحقا؟..

شعر بقلبه يتمزق.. آآه من ظلم البشر.. آآه من قسوة البشر.. ها هي ذي زهرة...! الأم والأخت والزوجة لم تجد من يهتم بها.. تنكر لها العالم.. وأصبحت ملقاة في صحراء جافة من مشاعر قاسية.. لا تعرف معنى الرحمة ما لم ترتبط بمصلحة.

أصابه الخوف على أحبته.. ونسي نفسه.. تمنى لو أن عمره بيده ليوزعه عليهم.. فقط لكي يكونوا سعداء.. يعيشون في مأمن من الذبول.

فكر قليلاً في المريضة التي تجلس أمامه.. ترى لماذا
جاءت وحدها.. رفع رأسه وابتسم من جديد.. شعر أنه
ضعيف لا يملك سوى هذه الابتسامة يوزعها على كل
الفقراء.. وسألها..

- هل لك أبناء أماه؟

اكتفت بإشارة من يدها.. ثم هزت رأسها في ثققل..
وزفرت زفرة أودعتها قصة ألم سنين طوال.. وسمح ثانية
لفكره أن يعمل.. ترى ماذا تعني هذه الزفرة؟

فكر في نفسه.. ربما ليس مثلها تماماً.. ولكن حياته تحمل
أنواعاً من الألم.. البعد عن أسرته.. وموت والده.. وأمه
وإخوته الصغار الذين ينتظرون عودته.. ومسيرة البحث المضنية
عن قلب يحمل همه.. ودون أن يشعر ردد زفرة العجوز.
أين أنت أيها القلب؟. بحثت عنك طويلاً.. ولا أزال
أبحث.. أبحث عن دنيا مفقودة.. تزرع في قلبي البسمة.. عن
شمس تشرق في دربي.. وتغيب خفافيش الظلمة.. عن صدق..
عن قلب صافٍ.. عن كف تملؤها الرحمة.. أبحث عن حبٍ
في دربي.. يحيي آمالي المنثرة.

- اسمعي يا أمي.. ستراجعيني بعد يومين لاستكمال
الفحوصات المطلوبة.. ولو احتاج الأمر إلى جراحة فستقوم
المستشفى بتحمل كافة التكاليف.

فتحت فمها المتغضن وظهرت بعض الأسنان المتآكلة..

وفي فرح وابتسام أخذت تدعو له.. شعر أنها نسيت الكلام فباستثناء بعض الإجابات المقتضبة لم تكن تبسم أو تتكلم.. ولكنها الآن ابتسمت وبدا أن الأمر خفف عنها الكثير. عاد لكلامه معها..

- وإذا تعبت خلال هذه المدة لا تتأخري في الحضور إلى هنا.. سأعطيك ورقة تسمح لك بالبقاء في المستشفى في حالة حدوث مضاعفات.. فقط لا تحمليهما واستمتعي بوقتك..

ومع هذه العبارة حاول أن يكون مرحاً.. ولكن دمعة كادت أن تنزل من عينه فتفضحه.. فهو نفسه لا يدري أيذكر هذه المرأة أم لا.. ولكن لا بد أن يرى النتائج ليتمكن من عمل شيء.

غادرت المرأة الغرفة.. لم يكن في الانتظار غيرها.. نظر إلى الساعة المشيرة إلى الثالثة.. وغرق في تأملاته.. وهكذا تمر أعمارنا دون أن نشعر؟ وماذا يبقى لنا من يومنا؟ أو من عمرنا بالأصح؟ وفكر في مريضته من جديد.. كانت تسير في فناء المستشفى.. الخطوات المتثاقلة.. وانحناءة ربما كانت دليلاً على التعب.. أو ربما تكون دليلاً على ضربات السنين.. اختفت عن ناظره وبقي يفكر فيها.. ويراها في كل الناس المارين أمام نافذته.. "زهرة" .. "زهرة" بقي يردد الاسم في ذهنه قطع تأملاته سؤال الممرضة الواقفة خلفه.. إن كان يريد

منها شيئاً قبل أن تذهب.. أفاق من تأمله ونظر إلى الممرضة
العجوز.. وربط بينها وبين زهرة.. وجه كلامه للممرضة..
"زهرة" .. لم يبق لها من اسمها إلا الذبول.. تبسم ثانية..
وتابع كلامه.. كلنا مثلها.. كانت زهرة.. صارت شوكة.. ومع
دهشة الممرضة عاد إلى مكتبه وأشار إليها بالذهاب.

فاصل

رحيل الحنان..

- لا أستطيع.. لا أستطيع.. صدقني الأمر يحتاج إلى مدة زمنية، قد تطول وقد تقصر.. وطبيعة مرض الوالدة يحتاج إلى جراحة.. ولذلك لا بد من استكمال كل الإجراءات.
- لكن يا دكتور.. والدتي مريضة وهذه حالة طارئة.. وقضية إنسانية..

- أقدر ذلك.. لكن.. لا بد من استكمال الأوراق حتى أتمكن من مساعدتك.. إنما يمكنك أن تتصرف بالتنسيق مع مدير العيادة في قبول أمك.. حتى أتمكن من مساعدتك.
تركني وذهب.. رجل من جنسية عربية يعمل عاملاً بأجر لا يكاد يكفيه.. وبالرغم من ذلك يرسل منه لأسرته ويدخر مبلغاً لكي يحضر والدته لتزوره بعد أن بقيت وحيدة في بلادها يوم أن سافر وتركها لأجل كسب المعيشة.. وبالفعل جاءت أمه لزيارته.. ومرضت أثناء ذلك.. وأدخلت المستشفى.. ولكن لا بد من الدفع لاستكمال العلاج.. أو بالأصح للبدء في العلاج.
بقيت يومين انتظره ثم جاءني ثانية.. رأيت في وجهه

التعب والسهر.. رحبت به.. وأخذت الأوراق منه.. طمأنته
ووعده بالإسراع قدر المستطاع.. وبدأت في تعبئة البيانات
المطلوبة.. رفعت رأسي فوجدته ساهماً.. تابعت الكتابة.
كانت الحالة صعبة.. تخيلت مقدار الألم الذي تعاني منه
العجوز.. يا الله كيف تحتمل كل ذلك وهي المرأة الضعيفة..
وكيف تركت من غير علاج لأنها لا تملك ثمن العملية..
وارتسمت في ذهني صورة البعض ممن ينادون بالمبادئ
ويتغنون بها.. ولكنهم لا يلبثون أن يتخلوا عن كل شيء إذا
جاء موقف يتعارض مع مواقفهم الشخصية.. صورة من صور
التجارة بالمبادئ.. يوم أن يغيب عن الطبيب هدف مهنته..
ويصبح يداً تقطع.. لا يداً تعالج. ويصبح الطب تجارة كأى
تجارة.. فلا إنسانية ولا رحمة.. بل تسعيرات لكل علاج..
ولكل ابتسامة.

رفعت رأسي ثانية.. بدا كأنه لا يشعر بوجودي معه في
الغرفة.. أصدرت حركة تدل على وجودي معه.. نظر إلي
بابتسامة باهتة.. فبادرته بالكلام..

- كم عمر الوالدة؟

- 57 سنة.

- وكم ستكلف الجراحة؟

- 35 ألفاً.

نظرت إلى التقرير.. ترى هل تحتاج هذه الجراحة فعلاً

إلى هذا المبلغ المرتفع؟.. قلبت في التقارير.. وعدت أفكر ثانية.. ترى هل يدري أن هذا المبلغ هو قيمة المرحلة الأولى فقط؟؟ وأنه سيحتاج إلى ثلاث مراحل بعد ذلك؟

- من الذي ينفق عليها؟

- أنا.

كنت أعلم كل هذه الإجابات.. ولكنني كنت أريد أن أخرجه من همه.. كانت الأوراق مكتملة وفيها كل البيانات.. ولكن نظرة واحدة إلى رجل عزيز وهو مطرق يحملهما تكفي لتحريك أكبر الجبال من موقعه.. وكنت أرى الأصابع المتشقة تشابك وتضغط في ألم وقلق فأشعر بالشفقة.. ليس عليه فقط.. بل على نفسي وعلى كل البشرية.

- يا أخي لا تحملهما..

- الله كريم.

- كيف حال الوالدة اليوم؟

- ماتت.

-

-

ران صمت عميق.. وأرخيت قبضتي على القلم.. شعرت أنني لم أسمع جيداً.. فلا يمكن أن يكون ما سمعته صحيحاً.. أعدت سؤالي ثانية..

- نعم... عفواً لم أسمع جيداً.. كيف حالها؟

- ماتت..

صمت قليلاً وكنت أنظر إلى وجهه في ذهول.. ثم واصل كلامه.. المستشفى رفض إسعافها إلا بعد دفع الفاتورة.. فماتت قبل وصولنا.

أطرقت برأسي.. وتوقف القلم عن الكتابة.. وتوقف كل شيء في.. هل يكون الطبيب تاجراً؟ لا يقبل أي ضمانات ويرفض قبول مريض فقير في عيادته؟؟ أمسكت نفسي وأطرقت برأسي لكي أخفي دموعي.. وهكذا ففي عالمنا اليوم ولأجل فاتورة... يموت الحنان.